

توكوتومي كينجورو (لوقا)

الجزء الأول

الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (1906 م)

ترجمة وتقديم
سمير عبد الحميد إبراهيم
سارة تاكاهashi



الرحلة اليابانية إلى مصر وفلسطين

الجزء الأول (١٩٠٦م)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 1895
- الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر : الجزء الأول (١٩٠٦م)
- توکوتومى کینجیرو (لوقا)
- سمير عبد الحميد إبراهيم، وسارة تاكاهاشى
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

徳富蘆花集 8

巡礼紀行

徳富蘆花

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوربا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٠٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الرحلة اليابانية إلى مصر وفلسطين

الجزء الأول (١٩٠٦م)

تأليف: توکوتومی کینجیرو (لوقا)

ترجمة وتقديم: سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشى



2014

لوفا، توكتومس كينجيزرو.
الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (١٩٠٦)/
تأليف: توكتومس كينجيزرو لوفا؛ ترجمة وتقديم:
سمير عبد الحميد إبراهيم، مارة تاكاهاش.-
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.
مع ٢٤ سم. - (المركز القومي للترجمة)
٩٧٨ ٧١٨ ٥٥٩ تدمل ٢
١ - فلسطين - وصف ورحلات.
٢ - مصر - وصف ورحلات.
أ - إبراهيم، سمير عبد الحميد (مترجم ومقدم)
ب - تاكاهاش، مارة (مترجم، مقدم مشارك)
ج - العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٧٤٠/٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 718 - 559 - 2

ديبوى ٦٩ ، ٩١٥

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اتجهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	تقديم الترجمة
15	إهداء
17	مقدمة
20	- فى السفينة من يوكوهاما إلى بورسعيد الرحيل - اليابان الوطن الجميل - دادعا يا وطني - حمامه فى سفينة نوح - شنفهائى - هونج كونج - بحر المنطقة الاستوائية - سنغافورة - بيبان - المحيط الهادى - كولومبو - بحر القمر - أحداث متفرقة فى الرحلة البحرية - البحر الأحمر - قناة السويس - دادعا أيتها السفينة! دادعا بنجوماروا!
31	. السياحة فى مصر إلى القاهرة . الطريق إلى القاهرة - ليل القاهرة - وهذا هو نهر النيل؟! حضارة بلا مذاق - الأهرام وأبو الهول - إصابة عصفورين بحجر - مملكة الحياة ومملكة الموت - بلد المقابر - المتحف - الماضى والحاضر . إلى القدس
40	ما يضحك ويبكي على رصيف السفينة - أربع وعشرون ساعة كرنينة - النزول من السفينة - منظر الطريق
46	. اثنا عشر يوما فى القدس وما حولها

الليلة الأولى - إلى بلدة أريحا - وداعاً أريحا - البحر الميت - نهر الأردن -
القمر عند الغروب - الماضي والحاضر في بيت عانيا (بيتانيا) - القدس
في الوقت الحاضر (عام ١٩٠٦م) - قبر الخلاص - حائط المبكى (البراق)
صليل الجرس - مالك القدس - قبطان النصارى (زى النصارى) - بيت
لحم - حديقة الجثمانية (Gethsemane) - جبل الزيتون - الجلجلة الأصلية
- وادي الموت - لقطات متفرقة من مدينة القدس - الضريح المقدس -
بركة بيت حسدا - الليلة الأخيرة، الوداع - الوهم الأخير.

- 79 ثلاثة أيام على ظهر الفرس
من القدس إلى الناصرة - بئر يعقوب - ليلة في نابلس - بعد السامرية،
أطلال السامرية - بهجة السفر وتمتعه - مساء عينون - مرتفعات الناصرة
- من أطلال إلى أطلال - إلى الناصرة - مكان تربية الأنقياء الصالحين -
أطلال الناصرة القديمة - إلى طبرية - جبل الموعظة - قرية طبرية - فوق
سطح البحيرة - أطلال بحيرة طبرية.
- 101 الجليل مكان شاعرى مثل قصيدة شعرية
نهر الأردن مرة أخرى - عبور الجليل - شذرات - اليابس المتعدد.
- 109 ٧. بحر التاريخ والجزر الحالم (من حيفا إلى القسطنطينية)
ملامح فينيسيا وسماتها - البحيرة الملوءة بالجزر - إلى القسطنطينية -
مقططفات عن تركيا، القسطنطينية من أعظم مدن العالم - الكلاب -
جسر جلطا - سانت صوفيا (أيا صوفيا) - على شواطئ البوسفور -
متفرقات.

تقديم الترجمة

أدب الرحلة مجال خصب للبحث، لأن الأدباء حين يكتبون ذكريات رحلاتهم يعبرون عادة عن مشاعرهم بطريقة عفوية، وبخاصة تجاه الظروف التي يواجهونها، أو تجاه الأحداث التي يمررون بها، وتجاه من يلتقيون بهم أو يتعاملون معهم خلال الرحلة، ومن هنا كان الحرص على ترجمة أول رحلة للحج كتب بالفارسية في الهند، وكذلك ترجمة رحلة خواجة حسن نظامي إلى مصر وفلسطين والشام عن اللغة الأردية، وترجمة سفر نامه حجاز للدرية بادي عن الأردية، وقد صدرت ترجمة هذه الرحلات ضمن سلسلة الكتب المترجمة التي أصدرها المجلس الأعلى للثقافة، من خلال المشروع القومي للترجمة قبل أن يتحول مسماه إلى المركز القومي للترجمة. وتتجذر الإشارة هنا إلى ترجمة رحلة المسلم الياباني سوزوكى تاكيسى "الحج إلى مكة المكرمة" التي صدرت بعنوان يابانى فى مكة (الرياض ١٩٩٩م) وترجمة رحلات اليابانى تناكا إيبىه - رائد الدراسات الإسلامية في اليابان - إلى الجزيرة العربية وأسيا (الرياض ٢٠٠٤م)، أما هذه الترجمة التي نقدم الجزء الأول منها (الرحلة إلى فلسطين ومصر ١٩٠٦م) لمؤلفها كينجيرو توکوتومى فهي نمط مختلف تماماً، إذ هي نموذج من الرحلات اليابانية إلى المناطق المقدسة لدى المسيحيين، بقلم أديب ياباني مسيحي، يذكر أن هدفه هو الحج إلى الأرض المقدسة في فلسطين وبالتحديد القدس، ويستخدم كلمة (جونرئيه junrei) اليابانية التي استخدمها مواطنوه من المسلمين حين وصفوا رحلاتهم إلى الحج، وأداء مشاعر الحج في مكة

المكرمة. وكينجيزرو توكتومى - الذى اختار لنفسه اسماً أدبياً هو "لوفا" - أدبٌ ذاعت شهرته في اليابان، وترجمت بعض أعماله إلى أكثر من لغة، وتعد هذه الترجمة أول ترجمة إلى اللغة العربية لأى من كتاباته، وقد نشرت هذه الرحالة في المجلد الثامن ضمن مجموعة مؤلفاته التي نشرت في عشرين مجلداً.

توكتومى كينجيزرو (لوفا)

إذا ما ذكر اسم كينجيزرو توكتومى - وتوكتومى هو اسم العائلة ويستخدم عادة في اليابان قبل اسم الشخص نفسه - وإذا ما ذكر مقتربنا باسم أخيه إيتشيرو توكتومى، فهو يذكرني على الفور بالأخوين شوكت على ومحمد على في الهند، والأخوين مصطفى أمين وعلى أمين في مصر، فالأخوان كينجيزرو توكتومى (لوفا) وإيتشيرو توكتومى (سُهُو) يمثلان الصحافة والأدب، ويمكن القول - إن صح التعبير - إن كتاباتهما كانت خليطاً من الأدب والصحافة والسياسة، مع تنوع واختلاف، نتيجة لظروف المكان والزمان.

ولد كينجيزرو - أو كما أطلق على نفسه أحياناً لوفا - في 25 أكتوبر 1868م في إحدى قرى جنوب غرب جزيرة كيوشو لأسرة تنتمي إلى طبقة الساموراي، انتقل إلى كيوتو في معيه أخيه الأكبر - الذي كان بمثابة الوالد والأمر الناهي بالنسبة له - للدراسة في جامعة دوشيشا، وكان كينجيزرو سعيداً جداً بالدراسة في هذه الجامعة، ممتنعاً بعالٍج جديد من الكتب، وأحاديث أعضاء الإرساليات التبشيرية المسيحية، وبجوٍ خليط من الحياة اليابانية والغربية، حيث كانت زوجة تيسيميا جو، مؤسس جامعة دوشيشا ترتدي الأحذية الغربية والقبعات الأمريكية مع الكيمونو الياباني. وكان الطعام يقدم على الطريقة الغربية، ولظروف خاصة انقطع كينجيزرو عن الدراسة في جامعة دوشيشا، لكنه عاد إليها مرة أخرى ولفت أنظار أساتذته واهتمامهم.

عمل كينجيزرو توكتومى في إحدى المدارس المسيحية مع القس إيبينا أحد قادة المسيحية اليابانية، والذي صار فيما بعد رئيساً لجامعة دوشيشا، وفي فترة لاحقة قام الأخ الأكبر بترتيب عقد زواج كينجيزرو توكتومى الذي لم يسعد على

الإطلاق بهذا الزواج الذى رتبه له أخوه الأكبر، إلا أن العلاقة استمرت بل توطدت بين كينجيزرو توكتومى وزوجته أيكو حتى مماته، وهذا ما نلاحظه من إهدائه لهذا الكتاب إلى زوجته.

بعد أن ذاعت شهرته أدبياً وروائياً، اتخد من اسم لوقا اسماً أدبياً، ولوقا أو روكا - كما تكتب باليابانية - تعنى الزهرة التى تنبت بين الصخور، لكن لا وجود لها فى الواقع، وهى من بنات أفكار كينجيزرو توكتومى، وصف بها نفسه!! وربما للاسم علاقة أيضاً باسم القديس لوقا، وبخاصة أن اللام تتطق فى اليابانية راء، ولا وجود لحرف اللام فى الأبجدية اليابانية، فهو يلمح إلى الطبيب لوقا الذى كان وثنياً من أصل يونانى ثم آمن بال المسيح عليه السلام، ومن ثم وجه رسالته إلى ثاوفيليس أحد أصحاب النفوذ فى زمانه، وقد كتب القديس لوقا الإنجيل المعروف باسمه.

تعد رواية طائر الوقواق (هوتوتوغيسو) رواية الطبيعة والحياة من أشهر روايات توكتومى كينجيزرو لوكا، وقد نشرت أعماله فى عشرين مجلداً، إلا أن حياته - التى لم يكن راضياً عنها - شهدت تقلبات عديدة، مما دفعه إلى محاولة العزلة والهروب إلى الجبال والغابات، وربما كان يود الهروب من الواقع الذى يعيشها

فى أوائل أغسطس ١٩٠٥ قبل السفر إلى فلسطين بعام تقرباً، تساق توكتومى كينجيزرو جبل فوجى مع زوجته أيكو وابنته أخيه، وجبل فوجى فى اللاشعور اليابانى يمثل المقدس الذى ينال درجة علياً من الاحترام فى العقيدة الدينية الوطنية، ومن هنا تداخلت عقيدة كينجيزرو المسيحية مع العقيدة الوطنية. عند قمة جبل فوجى أغمى عليه، وظل مدة اثنتين وسبعين ساعة دون حراك ، فاقداً الوعى بين الصخور، ومع هذا فقد نجحوا فى النزول إلى أسفل الجبل، واعتبر كينجيزرو نفسه قد ولد من جديد؛ فقرر فى نهاية ١٩٠٥ أن يقضى سنة منعزلة عن الناس وسط الجبال، فأقام هو وزوجته أيكو فى فندق صغير يدار من قبل جماعة مسيحية، وهناك قرأ مع زوجته الأنجليل المسيحية الأربع، ورواية تولوستوى "ماذا علينا أن نفعل؟" وكانا يتمتعان بانشاد الترانيم والتسابيح الدينية،

والمشاركة في المناسبات السعيدة وسط تجمعات المسيحيين المحليين في منطقة إكاؤ، وهكذا عاد إلى حضن المسيحية بقوة، لكنه لم يستمر على هذا الحال سوى ثلاثة أشهر فقط؛ فقد غير رأيه، وقرر بدء رحلته خارج اليابان، واستعد للرحلة بزيارة مسقط رأسه حيث اشتراك الأسرة في تلاوة صلاة الرب، وأنشدت بعض الترانيم، ومن ثم انطلق كينجيرو في رحلته من ميناء يوكوهاما.

الرحلة إلى فلسطين ومصر

سافر كينجيرو إلى فلسطين لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة وإلى مصر مرتين: المرة الأولى عقب الحرب اليابانية الروسية ١٩٠٦م، وفيها زار مصر وتركيا أيضاً، ونشر ذكريات الرحلة في كتاب بعنوان "رحلات الحج"، الذي نقدم ترجمته هنا، وجعل عنوان الرحلة الثانية "من اليابان إلى اليابان"، وكان قد بدأها في ٢٠ مارس سنة ١٩١٩م، وهي التي سنقدم ترجمتها في الجزء الثاني.

من الجدير بالذكر أنه أثناء زيارته الأولى شعر بأنه سيأتي مرة أخرى إلى فلسطين، وربما تمنى ذلك؛ فقد كتب في دفتر زوار الفندق: "ما زالت القدس في خيالي، وما زالت في حلمي" وقد صدق حديسه. وعاد إلى القدس مرة أخرى سنة ١٩١٩م.

لم يكن كينجيرو سعيداً بما شاهده في القدس، وكان - كما ذكر البروفيسير أكييرا أوسوكي - أحدى النظرة، فقد كان منعاً ضد اليهودية والإسلام، شعر بالقرف من المدينة ومن أهلها، ويمكن الرجوع إلى الصفحات الخاصة بوصف شوارع القدس وأسوقها للتعرف على مشاعره تلك.

لقد أحس بخيبة أمل لرؤية القذارة بداخل المدينة إلى الحد الذي لم يستطع معه إلا أن يقول بأنه يجب إحراق كل شيء بداخلها، ويبدو أن الصورة نفسها استمرت تلازمه في رحلته الثانية، فقد شعر بكراهية الآخر العربي وغير العربي، المسلم واليهودي، وحتى الآخر الذي ينتمي إلى دينه أي المسيحي. كتب في رحلته الثانية: "من المعروف أن الأماكن المقدسة مكان جذب لكل أنواع البشر، لكنني أصبحت بالذهول الشديد عندما وجدت العديد من سكان القدس لا يدخلون من

كونهم متسولين، مما جعلنى أشعر بالتقزز من هذه المدينة!! لقد كانوا متحفزين للخطف والخداع والغش، ويفكرون دائمًا كيف يحتالون على شخص ما ليأخذوا ماله...“ ويعلن صراحة أن هذه قاعدة دون استثناء، فحتى القساوسة كانوا يفعلون ذلك الأمر”. كان هناك أتراك ويهود وسوريون وعرب وحتى قساوسة من القوقاز ذوى العيون الخضر الذين تندلى من رقابهم الصليبان أو يمسكون السبحات فى أيديهم ، إن معظم هؤلاء الناس كانوا لصوصاً محتالين أو مخادعين أو ينتمون إلى عصابات إجرامية .

ويرجع البروفيسير أكيرا أوسوكي سبب هذه النظرة إلى تأثر المثقفين المسيحيين اليابانيين في زمانه بالكتابات الغربية أو الاعتماد الكامل عليها مصدرًا للمعلومات عن الإسلام واليهودية(*).

ونرى أن كنجورو فضلاً عن كونه أحادى النظرة كان حاد المزاج أحياناً، مما أثر على أسلوبه وعلى تعبيراته، فهو حين يصف إسطنبول يذكرها كأنها تركيا، ويعتذر لأن القادر من الشرق الأقصى يصفها بالقدارة وعدم النظام، وحين كان يشاهد الأهرام في الجيزة، ورغم إعجابه الشديد بكل ما يراه فإنه وضع عنوان ذكريات هذا الجزء بشكل يعبر فيه عن مشاعره الداخلية، فذكر أن هذه الحضارة بلا ذوق، ولم يوضح ماذا قصد أصلاً من هذا العنوان، ولم يكن يصرح عادة بمشاعره، فلم يذكر صراحة من جدع أنف أبو الهول فشوه جماله، لكنه كتب أن “غيها” ذات يوم فعل هذه الفعلة، لكنه حين يكون مسروراً، أو حين يشعر بالراحة، يتغير أسلوبه تماماً، فهو يكتب وهو على شواطئ البوسفور أنه نسى أنه في تركيا، ويشعر أنه في اليابان ، فإذا خلع الناس “الطربوش” فهم تماماً مثل اليابانيين، مما أنساه أحياناً أنه في تركيا. لكنه على كل حال لم يكن سعيداً مطلقاً بما شاهده في فلسطين وفي القدس بشكل خاص، ومن الجدير بالذكر أنه استخدم الرمز كثيراً في كتاباته.

(*) أوسوكى أكيرا: الحرب والعنف في الأرض المقدسة، رؤية رجل دين ياباني للقدس، ورقة مقدمة لندوة الحرب والعنف في الأديان: ردود من عالم التوحيد، السجل العلمي للندوة العالمية لمركز الدراسات المتعددة المعايير للأديان التوحيدية Cismor ، ٢٠٠٤، جامعة دوشيشا، كيوتو.

فى مايو سنة ١٩١٤ مات أبوه، فطلب كينجиро من زوجته أيكو أن تعد الرحمة "سيكيهان" sekihan على روح الأب، وهنا لا يتعامل كينجиро مع الموقف طبقا للعقيدة المسيحية، وكما يقول البروفسير أوسوكي إنه ينبغي التنبيه فى حالة كينجиро روكا إلى أن اعتقاده المسيحى كان يدور خارج نطاق الكنيسة، وهكذا طلب من زوجته أن تعد طبقا من الأرض والفاصلوبا الحمراء ترجمةً على روح أبيه كازوتاكا؛ حتى ينتقل إلى عالم أفضل أو إلى مرحلة أفضل من مراحل خلاصه. وهو هنا متأثراً بعقيدة الشنتو والبوذية معا، ويظهر الصراع جلياً في رفضه حضور الجنازة لا لشيء إلا ليتجنب موقف وجود أخيه بصفته الأعلى منه على رأس الحفل؛ إذ هو المشرف على مراسيم الجنازة بصفته الابن الأكبر، وكان كينجиро يكره أن يكون خاضعاً لأخيه، وبالتالي شعر بالغضب من والده الذي كان دائماً يحثه على طاعة أخيه دون نقاش. لقد أراد كينجиро أن ينطوي على ذاته، طلاؤها معه زوجته أيكو التي شاركته مشوار حياته دون شكوى من تصرفاته التي وصلت أحياناً حد الغرابة، ورغم ما وقع بينه وبين زوجته أيكو من خلافات جعلها تسقط مريضية فإنه أخذ يعتنى بها ويمرضها وكأنها عروس في ليلة زفاف، وقد أفصح عن مشاعره في مجموعة مقالات تضمنت بعضها من سيرته الذاتية (الربيع الجديد) فوصف نفسه وأيكو بآدم وحواء في جنة عدن الجديدة.

في أواخر سنة ١٩٢٦ م تدهورت صحة كينجиро كثيراً، وقد زاره أخوه في اللحظات الأخيرة. اعتذر كينجиро لأخيه الأكبر لما سببه له من قلقل، واعتذر لزوجته مما سببه لها في مراحل الزواج الأولى، وغرق في نوم عميق لم يصح منه، وأقيمت له جنازة مسيحية حضرها ألفان من محبيه. لكن يظل هناك تساؤل كبير حول مسيحيته، فقد كانت نوعاً مختلفاً لدرجة أنه يصعب القول بأنها مسيحية بالشكل المتعارف عليه، فيبينما يرى البعض أنه بروتستانتي حقيقي إن لم يكن أرثوذكسيًا، يرى البعض الآخر أنه كان تابعاً لنموذج مسيحية عهد ميجي تماماً، وهي تختلف بالطبع عن المسيحية المعروفة في الغرب، لكنها من النوع الذي يمكن أن يفهم في سياقها التاريخي، وهذا يوضح لماذا كان معظم قرائه من

المسيحيين، وهو على عكس اليابانيين الذين يتوقفون عن البحث عن المعرفة إذا ما وصلوا مرحلة البلوغ، فقد ظل هو طوال حياته قسيسا ملتزما بمماراسته الدينية بحثا عن التویر.

لكن يبدو أنه لم ينجذب إلى مسيحيي الغرب، نتيجة للأسباب التي عبر عنها كينجورو في رسائله ومقالاته إلى أهل أوروبا وإلى المسؤولين الأمريكيين وإلى رجال الإرساليات المسيحية، مما جعل الناقد الياباني سينيتشiro كاتسوموتو Seii-chiro Katsumoto في مقال له بعنوان "روكا والمسيحية" يذكر أن عقيدة كينجورو تتواءز مع ما تدعو إليه جماعة الأوموتو (الشنتوية)، بينما يرى مانتارو كوبوتا Mantaro Kubota أنه بروتستانتي حقيقة إن لم يكن أرثوذكسيًا، بينما يرى البعض الآخر أن عقيدته كانت خليطا من طوائف النصرانية، بينما خلط أيضا بين النصرانية والبوذية اليابانية أو بين النصرانية والاشراكية اليابانية، إلا أن أهم ما يلاحظ في شخصية روكا هو شجاعته التي جعلته يقف بشجاعة حتى في وجه الرئيس الأمريكي ورئيس وزراء بريطانيا، وحتى ضد الجنرال البريطاني اللنبي Allenby، وينتقد them بشدة نتيجة إثارتهم للحروب وما جروه على البشرية من ويلاتها، وهو موقف يختلف عن موقف اليابان المعاصر من الحرب على العراق وأفغانستان والانصياع لأوامر أمريكا بإرسال قوات يابانية إلى العراق، وجهل ساستها بأوضاع الشرق الأوسط كما ذكر البروفيسير أوسوكى.

صعوبات الترجمة

وأخيرا تجدر الإشارة إلى بعض الصعوبات التي واجهتنا في ترجمة النص الياباني، وبأعلى على رأسها أسماء الأماكن والشخصيات، فالمؤلف كان يختار دائمًا للأماكن التي يذكرها الأسماء القديمة دون الإشارة إلى الأسماء المتعارف عليها؛ فهو مثلا لا يذكر "إزمير" باسمها المعروف لكنه يذكرها باسمها القديم "سميرنا" حتى الأعلام التي كان يكتبها بحروف "الكاناكانا" اليابانية، وكان نطقها يستلزم بحثا طويلا للتتأكد منها، وعلى سبيل المثال ورد اسم "صلاح الدين" هكذا سرادين، ولولا السياق لصعب التعرف على الاسم. وقد استخدم المؤلف وحدات قياس يابانية قديمة في معظم الأحيان، إلا أنه كان يستخدم أيضا وحدات القياس المعروفة مثل القدم والميل، فهو يستخدم وحدة القياس "الشاكو" وتساوي

ثلاثين سنتيمتراً، و "الجو" وتساوي ثلاثة أمتار، و "الرى" وتساوي أربعة كيلومترات وغيرها. وقد أشار ضمن كتاباته إلى عدد كبير من أسماء الأعلام القديمة والحديثة، مما استلزم الإشارة إليها والتعرف بها قدر الإمكان في الحواشي، ضمن التعليقات التي أثبتناها. وكان المؤلف ينتقل فجأة من فكرة إلى أخرى، والأمر الأصعب كان تداخل كتاباته عن أفكاره مع ذكره لنصوص من الكتاب المقدس، أو اقتباسات شعرية لم يذكر إن كانت من تأليفه أو من تأليف غيره. وهنا تجدر الإشارة إلى أننا اعتمدنا كثيراً على ترجمة الكتاب المقدس "الإصدار الرابع الطبعة الرابعة ٢٠٠٩ مـ" من النسخة العربية التي أصدرتها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط المطبوعة في كوريا، وأيضاً كتاب "قراءة توضيحية في الإنجيل" نشر الكنيسة الإنجيلية بقصر الديوبارة بالقاهرة (ط٢٠٠٩م)، فضلاً عن الدراسات التي كتبت عن المؤلف باليابانية والإنجليزية، وذلك لفهم كثير من التعبيرات التي وردت في النص، فالمؤلف كما سبقت الإشارة كثيراً ما كان يستدعي تعبيرات نصوص الإنجيل أو نصوص شعرية لم يذكر قائلها، ولم يوضح إن كانت من إبداعه الذاتي، وذلك أثناء شرح أفكاره وهو يمضى على درب رحلته.

ونتمنى أن تكون قد وفقنا في تقديم ترجمة عربية دقيقة تعبر عن فكر المؤلف من خلال النص الأصلي، كما نتمنى أن تعطي الرسومات والصور التي التقطها المؤلف فكرة عن الأماكن التي زارها، وذلك منذ أكثر من مائة عام، وقد حاولنا بقدر الإمكان استخدام التقنيات المتوفرة لنقل الصور التي لم تكن واضحة في أصل الطبعة اليابانية.

ولا يفوتنا هنا أن نقدم الشكر الجليل لكل من مد لنا يد العون أثناء القيام بهذه الترجمة، وفي مقدمتهم البروفيسير "أكييرا أوسوكي" المتخصص في الدراسات الفلسطينية ودراسات الشرق الأوسط، والذي لفت نظرنا إلى هذا الكتاب وإلى أهميته للقارئ العربي، كما نشكر المركز القومي للترجمة ممثلاً في مديره ومنشئه الأستاذ الدكتور جابر عصفور وجميع الزملاء العاملين معه، مقدرين جهدهم الوافر في إصدار ترجمات روائع الفكر العالمي باللغات المختلفة.

كيoto، اليابان، ٢١ مارس ٢٠٠٩ م

وبالله التوفيق،

سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشى

إهداء

إلى زوجتي

التي ربطني بها رباط قوى لا ينفصل

ديسمبر ١٩٠٦ م

مقدمة

في يوم من الأيام في بداية شهر مارس حين شاهدت الشمس تغرب من فوق جبل إيكاهو المغطى بالثلوج ، جاءتني فجأة فكرة لم تخطر على بالى من قبل، فقد شعرت أن ما أريده حقا هو الأماكن المقدسة وليس المسيح! وفي نفس الوقت خامرني شعور عجيب، فقد شعرت برغبة شديدة في أن أشاهد طلة الأذىب تولوستوى.

وهكذا بدأت أعد للسفر، وأشد الرجال للرحلة التي يطلق عليها بالصطلاح الدينى العام "رحلة الحج إلى الأماكن المقدسة" ، وبسرعة وجدتني أغادر ميناء يوكوهاما في الرابع من شهر أبريل، ووصلت إلى تسووروغا بمحافظة فوتوى في الرابع من أغسطس. لقد استغرقت رحلتي مائة وعشرين يوما، كنت كلما أفك فى طريق السفر، أظن أنتى في حلم، لم أكن أود أن أفك أبدا، لأننى إذا ما فكرت فى مسافة الطريق وطول الرحلة أجد رغبتك القوية في السفر تضعف تدريجيا، وهكذا أقلعت عن التفكير! لكنى تذكرت أشعارا من الأدب الصينى:

إذا ما انطلقنا على طريق السفر

سنواجه لا محالة المصاعب والمتابع

سنواجه الرياح الشديدة والعواصف والتواب

سنعانى من الأمطار الغزيرة

ونقاسى تضاريس الدروب المتعرجة

الصاعدة أحيانا والهابطة أحيانا
وهكذا إذا ما ذكرت لصديقي خبر رحلتي
تعجب وظن أنها أضغاث أحلام!"

شعرت الآن حقاً بمعنى هذه الأشعار وأنا أمضى على درب رحلتي إلى الأماكن المقدسة، إلى القدس، الطريق قريب مني لكن الهدف بعيد المنال.

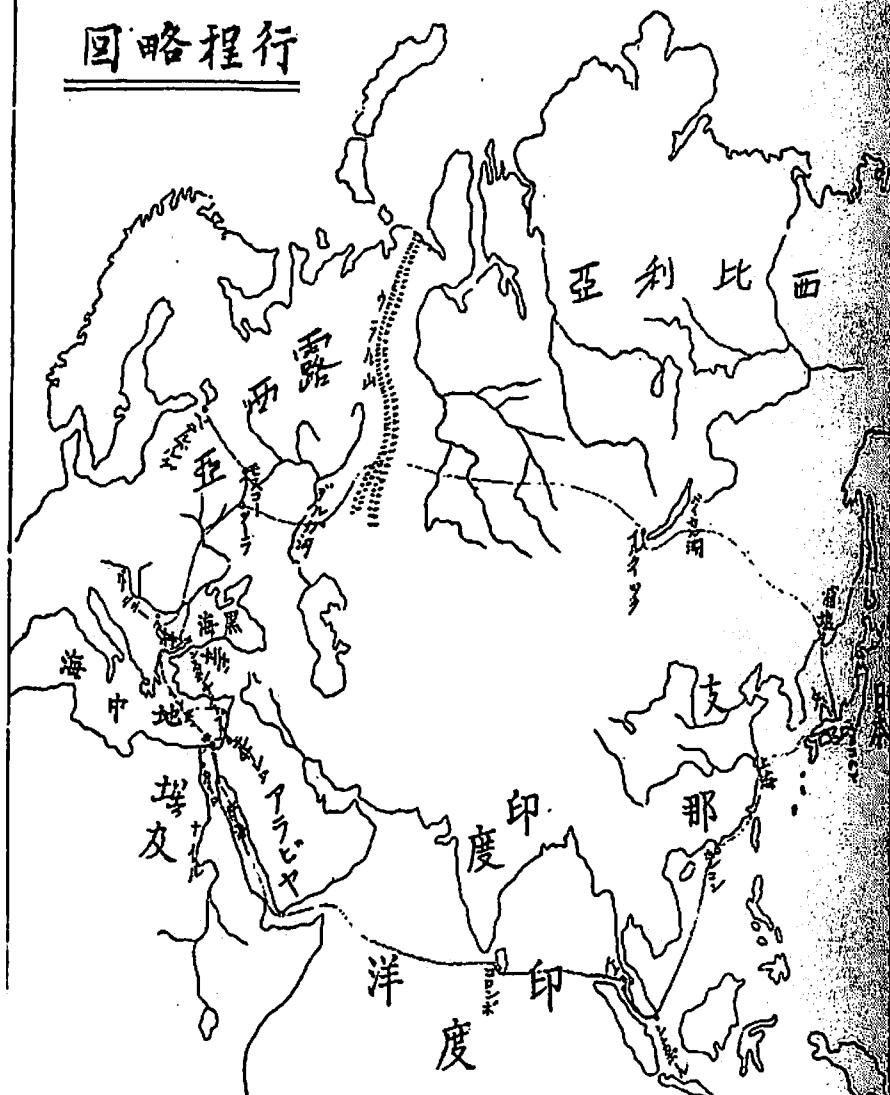
حين تفتح بصيرتي وتتمكنى رغبة ما، أشعر أننى كائن له وجود وسط هذا الكون المترامي الأطراف، وحين لا تفتح بصيرتي وتتلاشى الرغبة من داخلى، لا يمكن أن أنال شيئاً في هذا العالم. أشعر بشيء من الخجل، لأننى لم أنل شيئاً يذكر بعد عودتى من هذه الرحلة، لا أشعر إلا بأننى مجرد إنسان غبي لا أكثر.

توكوتومى كينجيزو

آؤياما - طوكيو

٢٠ ديسمبر ١٩٠٦ م

行程略圖



الرحلة الخريطة

في السفينة

من يوكوهاما إلى بورسعيد

الرحيل

ما أروع بداية رحلتى للحج! صللت مع أبي وأمى وأختى الكبرى وزوجتى وابن اختى وابنة أخي، وأنشدنا معا الترنيمه المقدسة بعنوان شروق الشمس.

في الرابع من شهر أبريل سنة ١٩٠٦م غادرت فندق "ريوان" الكائن ببلدة "زوشى" بالقرب من منطقة كاماكورا، كنا في الصباح وكان الجو يميل إلى الاعتدال بينما السكون يخيم على كل شيء، وجبل فوجى يبدو من بعيد وقد غطاه الضباب، وبدا المنظر كما لو كنا في عالم آخر غير عالمنا هذا. واليوم يحتفل الناس هنا بمرور ستمائة عام على وفاة هوجو توكيمونيه^(١) ولهذا أقام الناس احتفالا بهذه المناسبة ، ومن نافذة السيارة أخذت أشاهد الناس يمشون في صفوف متوازية حاملين الأعلام والفوانيس اليابانية.

وصلت إلى يوكوهاما حيث ركبت السفينة "بنغو مارو" ، كانت أزهار الساكورا (الكرز) فوق المرتفعات والهضاب قد تفتحت تماماً وبدت كأنها تتبسّم، بينما كان رصيف الميناء حيث رست السفينة يعج بالناس بين مسافر ومودع لمسافر، كان الناس يتحدثون، ويتصافحون ويضحكون في جو احتلّت فيه كل أنواع المشاعر الإنسانية، لم أخبر أصدقائي بسفرى هذا، فقد اعتبرته سرا، كما رفضت أن تأتى أسرتى هنا لوداعى، لكنى حين شاهدت المنظر الآن تأسفت كثيراً، وغبطة

(١) الحاكم العسكري السامورائى لمنطقة كاماكورا. (المترجم)

هؤلاء الناس، وأخذت أطلع هنا وهناك أبحث بين خلق الله فربما جاء أحدهم من أجلني بالخطأ، إلا أن هذا كان ضرباً من المستحيل!

في الساعة الثانية عشرة ظهراً حل موعد الرحيل. بورسعيد مكان بعيد... بعيد جداً من هنا، نحو ٨٢٠٠ ميل^(٢).

البابان الوطن الجميل

في مساء يوم الخامس من أبريل وصلنا ميناء كوبيه ، ومن هناك زرت بيت أختي الكبرى في مدينة كيوتو القريبة، وفي اليوم التالي ذهبت مع أخي الأكبر إلى قبر الأستاذ "نيجيمما" في منطقة هيجاشي ياما^(٣)، وفي يوم السابع من أبريل غادرت كوبيه، أبحرت السفينة متوجهة إلى خليج "سيتونايکاي".

كانت السفينة تمضي خلال النهار كما لو كانت صورة بالأبيض والأسود، وفي الليل كانت تسبح في ضوء القمر، فكنا نشعر كما لو كان هذا السفر ضرباً من الأحلام.

نزلنا ميناء "موجى" في الثامن من أبريل حيث تزودت السفينة بالفحمة.

مطر الرياح يداعب كأنه يودعني
وانا امضى راحلا عن موطنى
وداعا يا وطني!

في التاسع من أبريل غادرنا ميناء "موجى" ... داعيا يا وطني! وأخيراً لم أتمكن من حبك ، حتى وأنت صغير مثل الطفل، لكن يا وطني لك مستقبل عظيم، إن كان لديك طموح، وإن كانت لديك أحلام، ستجعل يا وطني من نفسك نعم الإنسان؛ لهذا عليك أن ترد الجميل للرب الذي خلقك بلداً جميلاً كلوحة بدعة رسماها أروع فنان، انزع يا وطني عن رأسك هذا الإكليل، لا حاجة للتاج، فمن يحمل السيف سوف يموت بالسيف ولو بعد حين، إن معركتك لن تكون في الشمال، ولن تكون

(٢) هكذا في الأصل. (المترجم)

(٣) هو نيجيمما جو مؤسس جامعة دوشيشا في كيوتو، حيث درس المؤلف عدة سنوات، وارتبط بالجامعة منذ شبابه. انظر المقدمة، وانظر موقع الجامعة على شبكة الانترنت. (المترجم)

في الشرق ولا في الغرب ولا في الجنوب، فعدوك هو أنت... أنت عدو نفسك، فاخسح الله، وأحب جيرانك، وعليك أن تتطهر من رجسك، سوف تجاهد يا وطني نفسك، وتتفتح على العالم كما لو كنت رياحاً تهب عبر المحيطات الأربعية. أظهر يا وطني للدنيا أولئك الناس الذين يلتلون بالأعلام التي تتوسطها الشمس، وأشرق بنفسك فوق المحيطات الأربعية.

حمامة في سفينة نوح

كانت الريح القوية تدفع السفينة التي تزن ستة آلاف طن، فتهتز بشدة وهي تمخر عباب الموج، كنت أرقد على بطني فوق ظهر السفينة مثل طفل لا يكتثر بما حوله، كانت كابينتي على الجانب الأيسر، بمساحة قدرها أربعة تتمانى ونصف^(٤) وقد فرشت فيها ستة مراتب من الإسفنج، وكانت بها نافذة تمدنا بالضوء والهواء، كان يمكنني أن أشاهد السماء الlanهائية حيث تلاشت الحدود، تعرفت على رفاق السفر، رفيق مسافر إلى البرازيل، وأثنان مسافران لمشاهدة معرض ميلانو، ورفيق رابع مسافر إلى بريطانيا، كان هؤلاء هم رفاق كابينتي، حين نفتح الباب كانت تواجهنا كابينة الدرجة الثالثة وهي كابينة مظلمة، مفروشة بالحصير الرخيص، وتعجبت كثيراً لوجود فرق كبير بين الكابينتين.

شاهدت شابين مسافرين إلى أستراليا لصيد اللؤلؤ، وشاباً آخر كان مسافراً إلى شمال أمريكا لدراسة توليد الطاقة الكهربائية باستخدام القوى المائية، وكان هناك آخرون مسافرون إلى شنگھائی وهونغ كونغ وسنغافورة، شاهدت في الكابينة أيضاً عائلة صينية وطلاباً صينيين.

كانت هذه أول رحلة بحرية لشركة "يوسينغ غايشا" Yuseng-gaisha إلى أوروبا لهذا كان اليابانيون يمثلون نحو ٩٠٪ من المسافرين ، كانت كابين الدرجتين الأولى والثانية مملوهة عن آخرها، وكانت تعجان بالمسافرين من وزارة الخارجية والإدارات الحربية، وطلاب البعثات، والمسافرين لدراسة فن المسرح، ومجموعات من متاجر "الكيمونو" الذي الياباني التقليدي، بالإضافة إلى موظفي هذه الشركة

(٤) التمامي قطمة من الحصير الياباني بطول ١٩٠ سم وعرض ٨٠ سم، وتحسب مساحات الفرف بعدد ما تحتويه من التمامي، والغرفة العادية قد تحتوي على ٦ تمامي أو أقل. (المترجم)

البحرية. كنت أشاهد أنماطاً مختلفة من الناس، فهؤلاء الناس يسعون من أجل تطور اليابان وتحديثه، ولهذا أرسلوا خارج الوطن. أما أنا... فلست أدرى لماذا أنا مسافر؟ لأى سبب أنا مسافر؟ كنت كما لو كنت حماماً في سفينة نوح عليه السلام! كنت كمن يريد فقط أن يلتقط غصناً من شجرة؟

شنغهاي

في الحادى عشر من أبريل وصلنا مدينة شنغهاي، لم أر أى مكان يستحق السياحة، لكنني شاهدت منظراً شيئاً جذاباً، فقد لفت نظرى وجود إعلان مكتوب على مدخل منتزه عام جاء فيه: "محظوظ على الصينيين الدخول"، وشاهدت حراساً هندياً طويلاً القامة بشكل ملحوظ يمنع ثلاثة من الصينيين من الدخول، بل يطردهم بعيداً حتى لا يتمكنوا من الاقتراب من مدخل المتنزه.

في السوق الصباحي الذي يعقد مبكراً شاهدت امرأة غريبة على رأسها قبعة من الصوف وهي تحمل بيديها دجاجة حية لا تتوقف عن الصياح، وكانت تشير إلى صاحب المحل رافعة ثلاثة أصابع من أصابع يدها كأنها تشير إلى الرقم ثلاثة... كان منظرها عجيباً!

هونج كونج

في يوم الثالث عشر من أبريل غادرنا شنغهاي، وفي اليوم التالي كانت الرؤية متعددة بفعل الضباب الكثيف، كان على السفينة أن تستمر في إطلاق صفاراتها وهى تمضى في عرض البحر، وفي يوم الخامس عشر أبرقت السماء وأرعدت، وهطلت الأمطار الغزيرة، بينما كانت السفينة تقترب من المنطقة الاستوائية، ووصلنا إلى هونج كونج يوم السادس عشر، كان الجو هنا شبيهاً بالجو في اليابان في موسم المطر، وهو جو غير مريح على كل حال.

نزلت إلى المدينة في اليوم التالي، حيث شاهدت أنماطاً مختلفة من البشر، الوجوه مختلفة والعيون مختلفة، حتى وقع الأقدام بدا لي متبيناً، والمواضيع بدت كأنها مختلفة عن تلك التي اعتدت سماعها من قبل، بينما الصياح الصادر

عن معظم الناس كان كله منصبا على النقود ولا شيء غير النقود. مضيَت إلى الضواحي البعيدة، وهناك أثار تعجبى سماع صرير حشرة السيمى^(٥) التي اعتدنا على سماعها في منتصف فصل الصيف، ورأيت أن اتسق الجبل وأركب عربة الحال كيبل كار إلا أننى لم أر شيئاً من حولى بسبب الضباب الكثيف، بعدها زرت سوقاً يطلقاون عليه السوق رقم واحد في شرق آسيا، وهناك اشتريت بعض الفاكهة، وتعرضت لهطول الأمطار الغزيرة.

بحر المنطقة الاستوائية

غادرنا هونغ كونغ صباح يوم الثامن عشر، كانوا قد نصبوا منذ أمس خيمة على ظهر السفينة لتحاشى أشعة الشمس المحرقة، وفي اليوم التالي رأيت أن أرتدى فيما بعد "اليوكاتا" اليابانية^(٦)، صار لون البحر مثل لون الياقوت الأزرق، يا له من لون جذاب! كم كان رائعاً وجميلاً لون البحر! في اليوم التاسع عشر شاهدت السمك الطيار يطير مثل الفراشات، وكنت أمتعد نفسي بشوق وسعادة بمشاهدة الدولفين، وفي منتصف ليلة يوم الحادى والعشرين ذهبت إلى مقدمة السفينة، ووقفت هناك وحدي، لم يكن هناك أى مسافر غيري، شعرت بدفعه الهواء، وقد بدت السماء قائمة بينما كان عدد النجوم التي تتلألأ على صفحتها كثيراً جداً بشكل مخيف، بينما السفينة تمضي في بحر لا أشاهد فيه سوى الظلمة، وبينما أنا على هذا الحال إذا بأحد رفاقى بال CABIN ^{كابينة} يأتي إلى جوارى، فأخذنا نطلع معاً إلى السماء ونحن نردد هذه العبارة:

"يا الله! لقد خلقت هذه السماء التي لا نهاية لها.. يا الله كل هذا من خلقك، ومن قدرتك!"

في يوم الثالث والعشرين داعبتنا السماء برذاذ المطر الخفيف، وصار الجو جافاً قليلاً، بينما كنا نقترب من خط الاستواء حيث كانت السفينة تتجه نحو سانغافورة، حيث ألت مراسيها في الساعة الحادية عشرة صباحاً، نزل جميع المسافرين في CABIN ^{كابينة} الدرجة الثالثة المقابلة لنا إلا مسافراً واحداً.

(٥) حشرة يقال إن يرقتها نظل مدفونة في الأرض سنوات ثم تظهر فراشة وتصدر صريراً حاداً، وذلك يعني بدء فصل الصيف الحار، ويرى اليابانيون أنه لا وجود لها إلا في اليابان. (المترجم)

(٦) السروال والقميص الياباني التقليدي الذي يلبس في الصيف. (المترجم)

سنغافورة

حين نزلنا إلى المدينة بعد الظهر أصابنا الخوف فقد أبرقت السماء وأرعدت، وكان علينا أن ننتظر حتى ينتهي البرق، ويسكت هزيم الرعد المخيف. بعد أن توقفت الأمطار أجرنا عربة ركبتها، وزرنا حديقة النباتات. سنغافورة مريحة ويسهل العيش فيها ربما بسبب الأمطار والخضرة، وقد شاهدت ألواناً كثيرة من الأزهار، وألواناً كثيرة من الهندود! فبعضهم بشرته بنية، وآخرون بشرتهم داكنة، وهناك من بشرته لونها أسود بنى، حتى اللون النحاسي تراه في بشرة البعض منهم، بشرة الهندود متعددة الألوان، وهي ألوان تتفاوت درجاتها أيضاً، فسبحان الله! كانوا يأكلون الكاري في المطاعم، بينما يرتدون ملابس بيضاء ملفوفة فوق الخصر، وهؤلاء في العادة يسحبون الجاموس الذي يجر عربات تحمل ثمار الأنanas.

في حديقة النباتات شاهدت أشجاراً لم أرها من قبل، وبعد أن توقف المطر صارت ألوان الأزهار والأشجار زاهية جداً وبدت الخضراء يانعة، وشاهدت السنجباب يلهو فوق الأغصان، وبدا كل هذا كأنه منظر اصطناعي غير طبيعي، فمثل هذا المنظر الخلاب لا يمكن أن يوجد له مثيل في اليابان، وقد أتعب العقل مع النظر في وقت واحد!

في اليوم التالي اتجهت إلى وسط المدينة حيث شاهدت أناساً من البشر ترتسם التفاسة على وجوههم، لم ينلهم حظ من السعادة، فهم أحياً لكنهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة، وشاهدت كثيراً من الأطفال الأيتام وشعرت بالأسى والحزن.

بيان

في مساء يوم الخامس والعشرين من أبريل غادرنا سنغافورة، ووصلنا إلى بيان يوم السابع والعشرين، وبعد ظهر اليوم التالي ذهبنا للتفرج على المدينة، كان على ظهر السفينـة (الديك) عشرون مسافراً حتى وصلوها إلى كولومبو، كانوا جميعاً من الهندود، وكان من بينهم رجل يفهم الإنجليزية، ويدين بال المسيحية، ويبدو

أنه كان منشغلًا بمطالعة بعض الكتب، بينما كانت هناك امرأة لونت جبها بروث البقر، وكانت تضع في ذراعيها أساور من ذهب، وفي أذنيها قرطا من ذهب، وفي ساقيها أيضًا وضعت حجلا من ذهب! وتعجبت لنظر رجل يضع الكاري والأرز على ورق الشجر ويأكله بيده في تلذذ غريب.

المحيط الهادى

غادرنا بيتنا ونمضى الآن في المحيط الهادى، لا نرى أمواجا، والهدوء يخيم على كل شيء، وبدت السفينة تتبعثر في هدوء شديد... تذكرت تاريخ اليوم آخر أيام شهر أبريل ... في طوكيواليوم احتفال عسكري! لهذا قدموا لنا في السفينة طعاما يابانيا خاصا، وفي تلك الليلة استمعنا إلى "الجرامافون" بينما كانا ننشد نشيد "دائ وان إيري" Dai wan Iri وهو نشيد يترنح به عادة المسافرون إلى أوروبا لدراسة إدارة الفنادق!

لم يختلف اليوم عن الأمس... السمك الطائر يداعينا، والدلافين تمتعنا بحركاتها، وطيور النورس تحلق من فوقنا، بينما تمر بجوارنا أحيانا بعض السفن، وكنا نشاهد الشمس تشرق وتطلع من الماء، وتغرب وتفرق أيضا في الماء، تشرق من المحيط وتغرب في المحيط، وأحياناً كنا نشاهد بعض تجمعات السحب في السماء. لكن فجأة سمعنا هزير الريح واسودت السماء، وهطل مطر غزير فجأة، وتوقف فجأة كأن شيئا لم يكن، أو كأننا كنا نرسم لوحة طبيعية بفرشاة.

في الثاني من شهر مايو شاهدت منظر الغروب، فكان لون السماء من ناحية الغرب مثل لون الليمون البارد، وفوق جزيرة سيلان شاهدت سحبا زرقاء قائمة اللون، ومن تحت هذه السحب شاهدت خيطا أبيضا ينزل من السماء!

كولومبو

وصلنا كولومبو في الثالث من مايو، أخذت عربة حنطور وطفت بالمدينة مع رفيق سفرى الذى يقيم معى فى كابينة واحدة، وغادرنا كولومبو في الخامس من مايو.

بحر القمر

بعد أن غادرنا كولومبو صار المحيط الهندي أكثر هدوءاً، وفي الخامس من مايو الذي كان يوافق اليوم الخامس عشر من الشهر القمري سكنت الأمواج تماماً، وكان الهواء عليلاً، بينما كانت الليلة ليلة مقرمة بحق، مما جعلني أشعر بالخسارة والأسف إذا ما أويت إلى فراشي مبكراً... فأخذت أطلع إلى البحر في ضوء القمر، لا حدود بين السماء والأرض، وتذكرت بعض الأشعار:

نمضي ونمضي حيث لا حدود تمنعنا من أن نمضي
بعيداً بعيداً كما لو كان البحر تحت ضوء القمر الفضي
متصلًا بالسماء دون حاجز مادي
أشعر أن ضوء القمر الفضي يربط البحر بالسماء
الليلة ليلة مقرمة ليلة السادس عشر كانت أيضاً ليلة رائعة
وكذلك كانت ليلة السابع عشر أيضاً

لا يمكن أن أنسى ما حبيت ليالي المحيط الهندي المقرمة!

أحداث متفرقة في الرحلة البحريّة

يستغرق السفر من كولومبو إلى بورسعيد نحو أسبوعين، مسافة طويلة، ولهذا فهناك أماكن للتسلية وقضاء الوقت أثناء هذا السفر الطويل، هناك الشطرنج الياباني والبلياردو، وحتى "الكريكيت". كما شاهدنا بعض القطط الأليفة، وهي تساعد من يريدون التسلية وتعينهم على قضاء الوقت، ولهواة تقليل الأشجار الصغيرة (بانصاى) في أقصصها نصيّبهم أيضاً⁽⁷⁾ على ظهر السفينة، وهناك أيضاً مجال لمحبي لعبة (السيجـة - جو)⁽⁸⁾، يا لها من أنشطة متنوعة ومفربة،

(7) فن ياباني يعني بتقليل الأشجار وهي صنفية فتتمو كاملة وتنتج الثمار، لكنها تظل شجرة قزمةً توضع في أصيص يمكن نقله وتحريكه بسهولة، وعادة ما يتم كبار السن بهذه الهواية لقضاء الوقت والتسلية. (المترجم)

(8) لعبة الجو بجيم قاهرية شبيهة إلى حد كبير بلعبة السيجـة في الريف المصري. (المترجم)

بينما يقوم الرجل الموكل بفسيل الملابس، بحمل القمصان والسرافويل لينشرها على سطح السفينة حيث الهواء الطلق وأشعة الشمس، أما الحلاق فلم يكن حلاقاً محترفاً بل كان هاوياً، يقوم بقص شعر من يرحب من المسافرين، وهكذا امتلأت السفينة بالحركة والنشاط، وصارت كما لو كانت بيته يضم أسرة واحدة، هذا ما يجعل السفر بالسفينة متعة، لم أضع جوربًا في قدمي، وكانت أمشى على سطح السفينة حافي القدمين، كنت أشعر كأنني أسبح. أكلت الأناناس الموجود في الثلاجة، فاكهة المناطق الاستوائية كلها لها مذاق خاص، تشعرك بالدفء، فهي فاكهة دافئة قوية المذاق، فالموز مثلاً حلاوته زائدة جداً تجعلني أعرض عن تناوله بسرعة من شدة حلاوته، وقد صار الأناناس فاكهة المحببة من بين الفواكه الاستوائية. آه تذكرت الأناناس الذي اشتريته من الصينيين في سنغافورة، إذ لا يمكن أن أنسى مذاقه ونكهته، كنت أرتدي اليوكاتا اليابانية، وهذه رحلة يابانية على سفينة يابانية، لذلك كان ارتدائي لليوكاتا شيئاً ممتعاً.

أشير هنا إلى أنه حتى وصلونا إلى سنغافورة كنت راقداً أعزاني من شبه دوار البحر، وابتداء من كوليومبو بدأت أتحرك بحرية على سطح السفينة، لدرجة أنني كنت أتناول وجبات الطعام الثلاث على السطح، وكان ذلك مريحاً جداً بالنسبة لي، كنت أتناول الأرز والطعام الأوروبي الخاص، ولم أتناول اللحم في كل وجبة، وكانت آخذ في العادة شريحتين من الخبز، وحيتي بطاطس، وكانت أبيد بالبطاطس اللحم مع رفيق غرفتي، إلا أنني قبل الوصول إلى بورسعيد بأسبوعين فقدت شهيتي تماماً. كانت هذه حالة خاصة جداً؛ إذ قدموا طعاماً يابانياً، فغمزني الفرح والسرور، أحد رفacci بالغرفة سأله النادل: هل يوجد طعام يابانياً؟ فأجاب: نعم..! عندها أطلق الجميع صفيرًا عالياً تعبيراً عن الفرح الغامر.

شاهدت بعض الصبية، كانت بشرتهم سوداء، عمدوا إلى القفز من قواربهم إلى الماء والغوص بمهارة فائقة، شاهدت حركاتهم هذه وشعرنا بالسرور، لكنني تعاطفت معهم، فقد كانوا يقومون بذلك فقط من أجل كسب مبلغ أقل من نصف مليون. كنت مسؤولاً بمشاهدتهم كما لو كنت أشاهد عرضًا مسرحياً على صفحة

الماء، كانت هناك قوارب صغيرة منتشرة هنا وهناك، قال ربان القارب الذي يقود السفينة مشيراً إلى ناحية أخرى: انظروا! هذه سفينة روسية. ثم أردف قائلاً: اليابان دولة عظيمة، روسيا ليست شيئاً، الموت لروسيا. كان هذا تملقاً بالطبع، فهو سيحصل على بعض الهبات بالضرورة.

فى شنفهای وهونج كونج وسنغاافوره وبينان وكولومبو أنواع مختلفة من العملات المتداولة، وكان علينا أن نغير العملة دائمًا مع أننا كنا نمضي على طريق دولى لا يخص دولة ما، فتغيير العملات لم يكن بالنسبة لنا أمراً مريحاً، هناك على وجه الأرض نحو "١٤٠٠٠٠٠" مليار وأربعين ألف نسمة يعيشون هنا وهناك، لسنا بحاجة إلى حدود تفرق بينهم، فقد كنت أشعر بالانزعاج نظراً لضرورة تغيير العملة بين يوم وآخر.

شاهدت غرفة المحركات ومكان التزود بالفحم حيث تصل درجة الحرارة إلى ١٨٠ درجة مئوية، وكان العمال والموظفوون هناك يعملون على نوبات، مدة كل منها ساعتان أو أربع ساعات، إلا أن بعض العمال كانوا يخرجون إلى السطح يجلسون على الكراسي ويستخدمون المراوح لتجلب لهم مزيداً من الهواء البارد، وكانوا كمن يتمتع براحة ليست من حقه... ربما كانوا كسالى. وقد شاهدت ذات مرة كابينة البحارة، ورأيتهم يلعبون القمار، انتابني غضب شديد، وشعرت بالحزن، أتمنى أن يوجد هنا بعض الأطباء أو بعض رجال الدين لعلاج هؤلاء وتقديم النصح لهم.

بدت السفينة كوحدة اجتماعية، فالجميع يعيش معاً مدة خمسة وأربعين يوماً داخل السفينة بعيداً عن اليابسة، وبعيداً عن المشاكل والحلول والقضايا والمقترنات.

البحر الأحمر

دخلت السفينة البحر الأحمر في الثالث عشر من مايو، صار لون مياه البحر يميل إلى الخضراء، شاهدت جزيرة عليها منار، وكان لون الصخور بين الأحمر والأسود، ولم يكن هناك وجود للخضراء على الإطلاق. حين تطلعت ناحية جزيرة

العرب رأيت جبلاً مصقولاً أحمر اللون يخلو من أى نبتة أو عشب، وهناك مناطق برونزية اللون تشكلت بفعل الرمال المحرق، حين شاهدت السحب شديدة البياض فوق الجبل تخيلت على الفور الرسول محمدًا (صلى الله عليه وسلم).

قناة السويس

في يوم السابع عشر من مايو شاهدت جبل سيناء على الجانب الأيمن، شعرت حين أشرقت الشمس كأن هذا الجبل له نوع من الكرامة الخاصة، وصلنا السويس في المساء، وبعد إجراءات الحجر الصعب الصارمة تحركت السفينة للمرور في قناة السويس، على الجانب اليمن ترا مت رمال آسيا بينما تربة إفريقيا كانت تمتد على الجانب الأيسر. وفي الثامن عشر من مايو مضينا في طريقنا عبر قناة السويس وطلعت علينا الشمس، وكانت هناك أترية رملية تضيقنا، ورغم أنني أغلقت الباب بسرعة فإن الكابينة امتلأت بذرات الرمال.

وداعاً أيتها السفينة! وداعاً بنجو ماروا!

وصلنا مدينة بور سعيد التي شيدت وسط الرمال، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر غادرت السفينة مع رفيق سفرى في الكابينة، هذه هي اللحظة التي انتهت فيها الرحلة البحرية التي استمرت مدة خمسة وأربعين يوماً... وداعاً بنجو ماروا! أتمنى لك الصحة والسعادة!

السياحة في مصر

إلى القاهرة

في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الثامن عشر من مايو نزلنا من السفينة ووطئت أقدامنا أرض بورسعيد، آه منذ كنت في سفنا فورة كنت أنام على الأرض، والليلة سأتأمّل فوق فراش ناعم ولين، لم أستطع النوم على الفراش في الفندق؛ فقد كان الفراش لدينا أكثر من اللازم وطربا جداً!

اليوم هو اليوم التاسع عشر من شهر مايو ، بقيت ثلاثة أيام على مغادرة القطار متوجهها إلى فلسطين، وهذه فرصة لأتجول في مصر خلال هذه المدة، وهكذا ركبت القطار المتوجه إلى القاهرة، والذي تحرك عند الساعة الثانية عشرة ظهراً.

الطريق إلى القاهرة

مضى القطار على جانب قناة السويس باتجاه مدينة الإسماعيلية، كنت أشاهد الرمال الحمراء على جانبي الطريق، وكانت هناك أشجار عالية لا أدرى ماذا يطلقون عليها، كانت هناك أشجار تحمل أزهاراً حمراء، وشاهدت نبات الصبار بكثرة، الدرجة الثالثة في القطار حالها كحال الدرجة الثالثة في أي مكان، كان بعض الركاب يضعون على رؤوسهم الطربوش، بينما كان البعض الآخر يضعون العمامة، ويرتدون جلابيب بأكمام واسعة طويلة، وفي أقدامهم الصنادل، بينما كانت هناك امرأة تضع على وجهها البرقع الذي يتزين بقطع معدنية لامعة،

بالنسبة لى كان هذا المنظر غير عادى بل يدعو للخوف... كان هناك شاب يدخل عربة القطار لبيع الصحف، بينما يدخل آخر لبيع عصير الليمون، وثالث يبيع الخيار، وشاهدت شخصا يبيع البطانيات.

بينما كان القطار يمضى فى الطريق إلى الإسماعيلية لم أشاهد حقولا خضراء إلا نادرا، فكل ما حولنا كان صحراء جردا ورملا متaramية الأطراف، بعد ذلك شاهدت ترعة للرى الزراعى ليست بالواسعة وهى تمتد من نهر النيل، كما شاهدت حقول القمح الذى نضج مبكرا قبل ميعاده، ورأيت الجمال والحمير بالقرب من الحقول ، بينما كانت بيوت القرى المتفرقة على الطريق مبنية كلها بالطين وطلبت جدرانها باللون الأبيض.

وصلنا القاهرة فى الساعة الخامسة مساء، استغرقت رحلة القطار من مدينة بورسعيد إلى القاهرة خمس ساعات.

ليل القاهرة

ها هي مدينة القاهرة، النيل يجري فى الناحية الغربية، وفى الجنوب الشرقي نشاهد جبل المقطم، ويفبلغ عدد السكان نحو ٦٠٠ ستمائة ألف نسمة منهم ٤٠ أربعون ألفاً من الأجانب، كنت أتبع رجلا يرشدنا إلى الفندق الذى سأنزل فيه، اخترت فندقا رخيصا بالقرب من المحطة، واستأجرت مرشدا يرافقنى لمشاهدة ليل القاهرة.

فى المقهى كنت أسمع كلمات مدام ومسيو، بينما كان الناس يتسلون بلعب "الطاولة" (الترد)، كان المقهى شبها بمقاهى باريس، فى المساء يكثر المسافرون الوافدون على المقاهى، وبخاصة فى فندق شبرد الذى يحتوى على ٦٠٠ ستمائة غرفة تشغلى عن آخرها وبخاصة فى المواسم، وقد شاهدت أيضاً فندق نيوكوتننتنال هوتل، لم أكن مهتماً بمشاهدة ما هو أوروبي أو على الطراز الأوروبي، زرت سوق الموسكى، حيث توجد محلات ودكاكين صغيرة جداً فى حوار ضيقة، كان على أن أشق طريقى وسط الزحام الشديد بين الناس، وشاهدت الحمير التى وضعوا عليها زينات وزخارف من المعدن والنحاس، رأيت عجوزاً ذا

لحية بيضاء تدلّى حتى صدره يمتطي حماراً يسوقه بين الزحام، كما شاهدت
صبياً صغيراً يحمل قرية ماء، وشاهدت محلًا كتبوا أعلاه اسمه هكذا "على بابا"
وشاهدت امرأة وضعٍ على وجهها النقاب الذي كشف عن عينين براقتين.

ألوان السجاد الفارسي مع صوت الناس الذين يبيعون المشروبات تداخلت
وتوحدت معاً، وأعطتني شعوراً غريباً كأنني أعيش إحدى حكايات ألف ليلة
وليلة!

أهذا هو نهر النيل؟

في الصباح الباكر جاعنِي المرشد مصطفى، كنت على موعد لزيارة الأهرام،
تزوج مصطفى مؤخراً، كانت يداه وأصابعه مخضبة بالحناء^(١). كان صباحاً بارداً،
انطلقت إلى نهر النيل راكباً الحنطور، تلك العربية المميزة التي يجرها الحصان،
شممت رائحة أزهار الأكاسيا^(٢)، عبرت الكوبرى المتند على نهر النيل، وشاهدت
تمثال الأسد عن اليمين وعن الشمال قعيداً، كان نهر النيل يموج بالماء، وكانت
الراكب والقوارب تنتشر على صفحة الماء تمضي هنا وهناك، جذبني منظر
الراكب الشراعية فهتفت بداخلي: آه أهذا هو نهر النيل؟

طوال رحلتي لم أكن أشاهد سوى البحر، فاعتادت عيناي على مشاهدة البحر
فقط، الآن أشاهد النيل وأشعر أنه مثل نهر "سوميدا" جاوا^(٣) نحن الآن في
الموسم الذي يقل فيه منسوب المياه عن العادة، لهذا إذا ذهبت إلى مصر العليا
هناك في الصعيد فسوف أشاهد النيل على حقيقته، أتمنى أن تتوفر لي هذه
الفرصة؟

حضارة بلا مذاق

ركبت قطاراً يسير على سكة حديد أنشئت مؤخراً، وعلى طول النيل مضى بنا
ناحية الجنوب، يقال إن خط السكة الحديد هذا سيمتد مستقبلاً إلى إفريقيا،
وقد وصل الآن إلى مدينة الخرطوم، حيث يوجد قبر الجنرال جوردن.

على ظهر مقاعد القطار توجد تعليمات للمسافرين كتبت بثلاث لغات: العربية
والإنجليزية والفرنسية، وبشكل عام يمكن أن نقول إن مصر تتبع طريق السياسة

البريطانية، إلا أشعر بالتأثير الفرنسي على المجتمع بشكل أوضح من التأثير الإنجليزي. كان القطار يمضي بين حقول القمح والحقول المزروعة بالخضراوات المختلفة، وأخيرا وصلت إلى هضبة مرتفعة حيث أمكنني مشاهدة الأهرام.

تفرجت على الأهرام، واستغرق ذلك خمسين دقيقة. آه، لقد أعطت الحضارة الناس الراحة، وسهلت عليهم سبل العيش، لكنها حرمتهم من الفرص التي تسمع لهم بالرومانسية ونظم الشعر... شاهدت فندق ميناهاوس ومحللا للتصوير ومكتب بريد صغيراً.

الأهرام وأبو الهول

بعد أن صعدت على الهضبة وجدت نفسى أقف أمام الهرم الأكبر، هذا هو قبر خوفو، مضى عليه خمسة آلاف سنة، وارتفاعه ٤٥٠ قدما وقاعدته ٧٤٦ قدما... آه، لقد مرت خمسة آلاف سنة شهد فيها هذا الهرم هبوب الرياح وسقوط الأمطار مما أثر على جسمه فتقشرت أجزاء منه بفعل عوامل التعرية هذه، ورغم هذه القشور أو البثور فى جسم الهرم فإننى أشعر بأنه لا يزال وسيظل عظيماً فخماً مهيباً.

من خلف الهرم الأكبر شاهدت هرماً ثانياً وعلى اليمين شاهدت الهرم الثالث، ومن حول الهرم الأكبر شاهدت مقابر صغيرة لرجال من بلاط الملك ولخدمه، ما زالت المشاعر القوية تموج بداخلى تأثراً منذ شاهدت أهرام الجيزة، ركبت الجمل، وسار بي حول الأهرام وتحرك بي أمام أبو الهول، وهنا التقى صورة للذكرى، وبقيت مدة أتمعن في أبو الهول.. يقولون إن أبو الهول أقدم من الأهرام، وجه إنسان وجسم أسد، كان الأنف مكسوراً قليلاً بفعل غبي ارتكب حماقة كبيرة، لذا فقد أبو الهول جمال الماضي، طوله ١٤٦ قدماً وارتفاعه ٥٦ قدماً والوجه من الذقن حتى الرأس ٢٨ قدماً، حين وقفت أمام أبو الهول شعرت كما لو كان أبو الهول يبتسم لي، شعرت بأنه كائن حي، إنسان مثلى، وفي نفس الوقت شعرت بأنه حيوان قُدْ من صخر، أتعجب... ستة آلاف سنة... زمن طويل جداً

النيل يمضي في صمت لا يبوج بالكلمات
الليل مظلم حالي بلا حدود
يمتد امتداد رمال صحراء ليبيا
تبرق السماء وترعد مرتين أو ثلاثة من أعلى الأهرام
بدا أبو الهدول كما لو كان يتثاءب في خمول
وكان الأمر لا يعنـيـه في شيء
منذ ستة عشر عام وأنت راقد فوق الكثبان
نصف إنسان ونصف حـيـوان
وتـمرـ الأـيـامـ،ـ سـيـاتـىـ زـمـنـ تـتـحـولـ فـيـهـ المـنـطـقـةـ
إـلـىـ سـهـولـ تـغـطـيـهاـ ثـلـوجـ تـضـارـعـ ثـلـوجـ سـيـبـيرـياـ
حيـثـ يـفـخـرـ النـاسـ هـنـاكـ بـثـقـافـتـهـمـ
 حينـ يـحـيـنـ الـوقـتـ الـذـيـ تـتـفـتـحـ فـيـهـ الأـزـهـارـ فـيـ الصـحـراءـ
قفـ أـبـوـ الـهـدـولـ وـأـنـهـضـ وـتـخـلـصـ مـنـ نـصـفـكـ الـآخـرـ
تـخلـصـ مـنـ نـصـفـكـ الـحـيـوانـ،ـ وـكـنـ يـأـكـمـلـ الـإـنـسـانـ

حين وصلت إلى مستوى أقدام أبو الهول المطحورة في الرمال شاهدت على
القرب قبراً مبنينا من أحجار خاصة بالمقابر، فوقفت أمام القبر وأنا أفرج بين
قدمي متطلعاً إلى أبو الهول ومن خلفه الأهرام، كان المنظر رائعاً خلاباً وسط جو
من الهدوء والسكينة، بدا لي كأنني لم أشاهد المنظر قبل هذه اللحظة، لا يمكن
أن أصف بالكلمات ما أشاهده الآن... قطع على خلوتي أحد البدو وهو يقول:

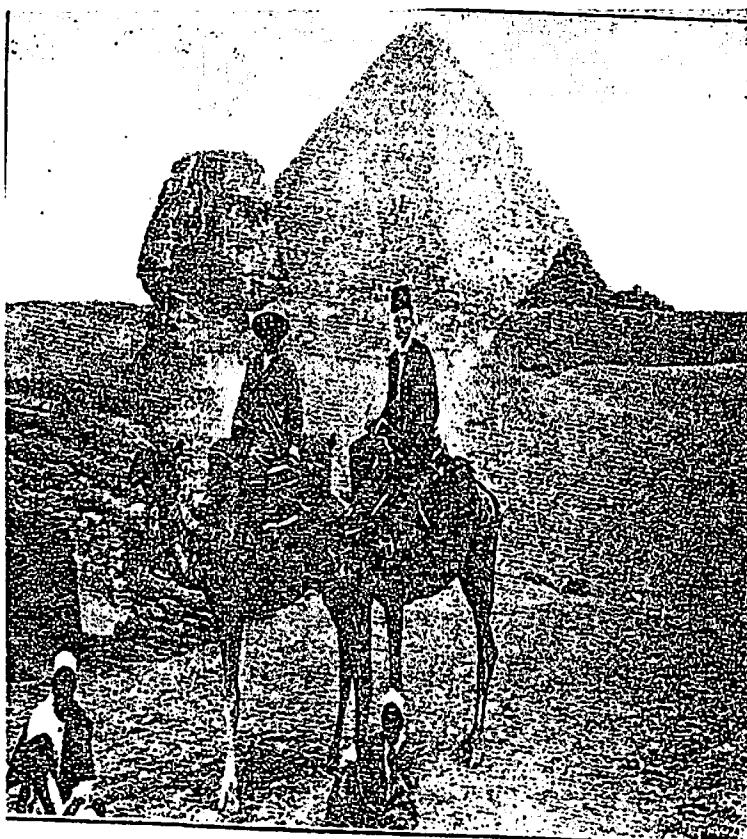
— مستر مستر سوف أرى حظك!

ثم رسم شكل الشمس على الرمال فسألته عن حظى فقال:
الله وحده هو الذي يعرف حظك!

فقلت له :

حسناً! وداعاً!

وقلت وداعاً للأهرام أيضاً.. وداعاً أيتها الأهرام!



الهرم الأكبر وأبو الهول

إصابة عصفورين بحجر

تذكرت هذه الحكاية، فقد كنت قد تسلقت الهرم مع مساعدى، وذلك من ناحية الركن الجنوبي الشرقي. الأحجار الرخامية الضخمة قطع أكبر من ٩٥ سم، أمسك المرشد بيدي يساعدنى على تسلق الأحجار الضخمة، هبت ريح أطارت قبعتى من فوق رأسي فاندهشت وتعجبت، نظرت إلى الكتلة الحجرية التى تعلونى

فوجدت حية بنية اللون بطول ستين سنتيمترا، كانت حية سمينة كأنها حامل ستلد قريبا، أصابنی الرعب والوجل، لكن ربما لم تكن الحية سامة، التقطت حجرا وضربت به الحية فلقطت أنفاسها، ولقطت أيضا في نفس الوقت سحلية صغيرة لم تكن قد ابتلعتها تماما!

هذا قبر ملك مررت عليه خمسة آلاف سنة... أعتليه الآن بحزن، تملكتني الخوف، وصلنا إلى القمة في عشرين دقيقة، يا له من هرم عظيم! لا يمكن أن أتخيل أن يبنيه إنسان.

مملكة الحياة ومملكة الموت

عند قمة الهرم منطقة مسطحة مساحتها نحو ٢٣٠ مترا^(١) جلست هناك وأنا أتصبب عرقا، وبدأت أطلع حولي وأنظر إلى أسفل الهرم على الناحية الشرقية حيث "مملكة الحياة"، شاهدت واهب الحياة لمصر، شاهدت النيل، أم المصريين؛ فهو لهم شريان الحياة، ما زال يمضى ويجرى كما كان منذآلاف السنين، كانت ضفتاه مثل لوحة مرسومة بلون محصول القمح الأصفر، مع لون الخضروات الأخضر، وصورة أشجار التخيل الباسقة الممتدة إلى السماء، ومدينة القاهرة تتراءى لي من بعيد أسفل جبل المقطم، ومن هنا حتى هناك يمتد طريق تصطف على جانبيه الأشجار الخضراء.

من الناحية الغربية شاهدت "مملكة الموت" شاهدت الصحراء الجرداء، لا شيء غير صحراء مترامية ممتدة حتى الصحراء الليبية، التي يصف الناس رمالها بأنها أمواج مترامية كأمواج البحر، ومن فوق الهرم الذي أقف على قمته... الآن يمكنني أن أشاهد أهراماً صغيرة كثيرة تحيط بالمكان، مر على معظمها آلاف السنوات، واكتشف بعضها مؤخرا، كما توجد كتل الأحجار الضخمة، ومن بعيد وعلى مرئي بصرى يمكن أن أشاهد أهراماً سقارية، هذه مملكة الموت حيث لا حياة، ولا شيء سوى القبور، أمكنني أن أشاهد أسماء السائحين الذين وصلوا إلى قمة الهرم وأرادوا أن يعبروا عن ذلك بكتابة أسمائهم، وقد رغبت أنا أيضا في ذلك فاستعرت مدية من أحد البدو وحضرت اسمى أيضا فوق قمة الهرم.

(١) ورد في الأصل ١٠٠ سبو، وسبو واحد = ٢٠٣ مترا. (المترجم)

لم أر داخل الهرم، فقد اكتفيت بالصعود على قمته، ورجعت كما جئت بالقطار، في المساء ذهبت مع المرشد لزيارة مسجد محمد على ومشاهدة جبل المقطم، وشاهدت ساعة كبيرة قيل إن نابليون بونابرت كان قد أحضرها من فرنسا، ومن جوار مسجد محمد على أخذت أشاهد مدينة القاهرة والملح من بعيد نهر النيل العظيم، وكان يمكنني أيضا أن أرى مجموعة الأهرام الثلاثة، مضيّت عبر منطقة فقيرة جدا مملوقة بالذباب ومكتظة بالأطفال، وشاهدت قبور المسلمين، التي كانت مغطاة بكتابات من القرآن الكريم، ولاحظت أن رأس المقبرة يكون دون استثناء مزخرفة بكتابات من القرآن الكريم، ولاحظت أن رأس المقبرة يكون تجاه مكة حيث يتوجه المسلمون في صلاتهم، كانت هناك مقابر مزخرفة بألوان ذهبية، وسمعت أن المقبرة الواحدة تكلف نحو ٢٠٠ ألف ين^(٢)، وقد أعددت مقاعد وأماكن للجلوس والراحة ملحقة ببعض المقابر حتى يستريح أهل الميت إذا ما جاءوا إلى القبر... آه، حقا هذا بلد المقابر!

كان على أن أشاهد أماكن أخرى كثيرة مثل ممفيس وغيرها، لكنني كنت متعبا فاكتفيت بمارأيت.

المتحف

في صباح يوم الحادى والعشرين من مايو زرت المتحف، قال الإنثروبولوجي الياباني فوجى هوزو: إنه كان هنا ما بين ٢٠٠٠ ألف طفل و ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف. لقد وهب الله الإنسان الرغبة في الحياة إلى ما لا نهاية، وإذا كان لأحد أن يشك في هذا فليأت ولينظر إلى ما في هذا المتحف، حيث يوجد أناس من الأحجار، وأناس من خشب الأشجار، وأناس من الفولاذ، وأناس من لحم وعظم حنطة أجسامهم... أنواع كثيرة من صور البشر، يتباينون في صمت وسكن ويعلنون: نحن هنا... نحن ما زلنا على قيد الحياة. شاهدت تمثلاً محظياً أسود وفي الأذن شاهدت قرطاً من ذهب، وبده القرط يبرق كأنه يضحك لأن الروح قد غادرت الجسد وتركته دون رجعة... أتمنى أن يُحفظ كل ما في هذه المعبد إلى الأبد، أتمنى أن يظل حياً إلى الأبد؛ عبرة لكل البشر!

(٢) بالنسبة لذلك الوقت كان هذا المبلغ كبيرا جدا في اليابان. (المترجم)

الماضى والحاضر

كان اهتمامى وأنا أزور مصر مركزاً على الماضى، ماذا أقول عن الحاضر؟! أنا حزين قليلاً من أجل مصر التي تأثرت بالثقافة الفريبية وبالحضارة الفريبية التي لم تؤسس على الإسلام ... الليلة غادرت القاهرة في طريقى إلى بورسعيد.

إلى القدس

ما يُضحك وما يُبكي على رصيف السفينة

في الساعة الخامسة من مساء يوم الثاني والعشرين من شهر مايو ركبت السفينة النمساوية "أموفيتريات" المتجهة من بورسعيد إلى يافا، كانت السفينة مملوقة بالأحمال والبضائع، وكانت هناك مجموعات من المسافرين الأتراك من مختلف الأعمار، مجموعات من النساء ومجموعات من الرجال، كان هناك رجال تتدلّى شعورهم على الأذنين بشكل عجيب، ويضعون قبعات على رءوسهم، وكانت هناك نسوة يغطين وجوههن بإيشاريات شفافة تكشف إلى حد ما عن ملامح الوجه، وهؤلاء جاءوا من روسيا، وكانوا في طريقهم إلى القدس، قالوا بأنهم ينتمون إلى عائلات يهودية، لم يكن هناك أى مكان للجلوس، كنا جميعاً نقف دون أن نفعل شيئاً، فقط قامت جماعة اليهود الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٨٠ سنة أو ٧٠ أو ٨ سنوات بإخراج صندوق أسود مثل الكاميرا، فوضعوه على جيابهم، وربطوه بخيط من الجلد، بينما ربطة كل منهم صندوقاً آخر على الذراع الأيمن وثالثاً على الذراع الأيسر، وكان الرجل الذي يبدو زعيماً قد بلغ من العمر أرذله، رجل هرم، لف جسمه بقماش أبيض، وكان كل رجل منهم يحمل نسخة من كتاب اليهود المقدس، يمسكه بيده وهو متوجه نحوية القدس، وبدأوا في الترتيل بصوت رخيم لأن شخصاً يئن من وقع ما ألمَ به من ألم، كانوا ينحنون بأجسامهم من فوق إلى أسفل، ويتمايلون يساراً ويميناً، وفهمت أن هذه هي صلاتهم في المساء، وعرفت أنهم يسمون الصندوق الأسود "تيفلين"^(١) وبداخل هذا الصندوق كتبت

(١) تقليد يختضى بأن يضع الرجل الذى بلغ سن الرشد صندوقين صغيرين يلتفهما بشريط على جبهته وزراعه الأيسر صباح كل يوم من أيام الأسبوع، وتكتب بالإنجليزية Tefillin . (المترجم)

عبارات من الكتاب المقدس، وهذا يعني أنهم وضعوا وصايا الله أولاً على جهتهم وعلى أذرعهم، ثم بدأوا الصلاة بعد ذلك.

ذات مرة كانوا يفتخرون بأنهم شعب الله المختار، فمن بينهم أرسل كثير من الرسل، وحتى المسيح جاء أيضاً من بينهم، لكنهم فقدوا إيمانهم، ونكثوا بالعهود، ولم يطعوا ما جاء في الوصايا العشر، فصاروا عبيداً للمال، وقدوا أرضهم، وعاشوا سنوات معاناة وتعب في الشتات. كيف يمكن لهؤلاء أن يكونوا في انتظار الماشيّع؟ على الأقل لقد صاروا الآن أناساً لم يعودوا يعانون كما كانوا في السابق، وهم الآن يطهرون أرواحهم، شاهدت أطفالاً كثيرين معهم، كانوا مثل الدمي، وكانوا أشقياء، لكن ملامح الجمال والوسامة تعلو وجوهم، شاهدت من بينهم أطفالاً على وجوههم ملامح تدل على سمات أولئك الذين سيعودون حقاً إلى إسرائيل في المستقبل!

تم وضع الأحمال والبضائع على السفينة، اليهود والأتراك والسوريون كانوا يتسابقون، يحاولون احتلال أماكن طيبة على السفينة، وامتلأت الدرجة الثالثة في وقت قصير جداً. انطلقت السفينة في موعدها في الساعة السابعة، مررنا بتمثال ديليسبيس، ومررنا بالمبني الضخم لشركة قناة السويس، وغربت الشمس وحل الليل، وكان ليل البحر الأبيض المتوسط بارداً، وكنت قد تمكنت من احتلال مكان ضيق يسمح لي أن أجلس فيه القرفصاء، ولا أكثر من ذلك، وغطيت نفسي بالبطانية، ونممت وأنا أطالع النجوم المنتشرة في السماء من فوقى.

أربع وعشرون ساعة كرتينية

وصلنا في الساعة الثامنة من صباح يوم الثالث والعشرين إلى حيفا، شاهدت من على ظهر السفينة صحراء ينعكس لون رمالها الأحمر على لون البحر الأبيض المتوسط الذي يميل للخضراء، ورأيت بيotta بيضاء قائمة على المرتفعات والهضاب، هنا جاءت على بالي حكايات القديس يوحنا والقديس بطرس^(٢).

(٢) هو يوحنا المعمدان الذي يعرف في الإسلام باسم يحيى بن زكريا، وهو آخر أنبياء العهد القديم، وكان يعظ في البرية المحیطة بنهر الأردن، وقصة قتلها بأمر هيرودوس معروفة. أما القديس بطرس فقد ولد في قرية بيت صيدا في فلسطين، وكان أول أتباع يسوع، ثم كان قائداً لبقية رسلي المسيح عليه السلام، ومن المعروف أنه قُتل صلباً على يد الرومان. (المترجم)

نستعد الآن للنزول من السفينة، شيء لم يكن في الحسبان ولم نتوقعه، لا بد أن نوضع في الكرنطينة (الحجر الصحي) مدة أربع وعشرين ساعة، نزل جميع ركاب الدرجة الثالثة إلى موقع الحجر الصحي، خلع اليهود أحذيتهم وجواربهم، وشقوا طريقهم في الماء إلى أن وصلوا إلى الشاطئ حيث موقع الكرنطينة.

في موقع الكرنطينة تم تجميع كل ممتلكاتنا وتبخيرها بالبودرة لتنظيفها والقضاء على أي جراثيم تكون قد علقت بها، ومن ثم وجب على الجميع أن يكونوا عرايا، حتى يتم رشهم بالبودرة مثلهم مثل أمتعتهم، بعد ذلك وحين حان وقت الظهر أدركت أن جميع المسافرين قد قاموا بترتيب أمر الطعام بأنفسهم من خبز وبيض وخيار ومشروبات، لكن لم أهتم أبداً بهذا الشأن، ولم أكن مستعداً لذلك، فقد كان هذا الحجر الصحي أمراً غير متوقع بالنسبة لي، ومن المؤسف أنني منذ الصباح لم أتناول شيئاً من الطعام، لهذا عضني الجوع بشدة، وبالصدفة وجدت ما يشبه "الكشك" الصغير يبيع الطعام، و كنت في عجلة من أمري فأسرعت ناحيته، إلا أن صاحب الكشك كان يصيح في وجهي من بعيد قائلاً:

- لا تقترب! لا تقترب!

تعجبت كثيراً إلا أنني أدركت أن هناك بلاطة من الرخام عند الكشك، كان على أن أضع عليها النقود، وفي مقابل ذلك أعطاني الرجل بعض الخيار ورغيفاً من الخبز الأسمر وقطعة من الجبن المتسخة التي تعافها النفس، ولم يسلمني الرجل هذه المأكولات، بل وضعها على البلاطة، وكان على أن أحملها بعد ذلك، ربما كان يخاف أن أنقل إليها عدوى مرض أو وباء، ولذا كانت البلاطة الرخامية هي الوسيط بين البائع والمشترى، حتى لا يحدث تلامس بينهما. وحملت الطعام وعدت أدراجي مرة أخرى، حيث تم حجزنا داخل الكرنطينة!

بعد أن دخلت مصر سمعت عدة مرات الكلمة الشهيرة "بتشيش"، والأتراك هنا يرحبون بالضيف في فلسطين، وكلمة الترحيب الأولى كانت "بتشيش"، جاء مسئول الكرنطينة، رجل تركي كان يرش الأmente بالبودرة، كانت عيناه واسعتين وكانت لحيته مثل لحية نابليون الثالث، ومن رقبته تدللت سلسلة بها هلال من المعدن، اتجه الرجل ناحيتي وقال لي:

إن في أمتعتك ملابس ثمينة وفي حقيبتك حاجيات غالية لا أريد أن أرثها
بالبودرة ...

وفي نهاية المطاف أوضح لي أنه يريد أن أعطيه "بتشيشاً"، وهكذا فعلت، وبعد أن أعطيته بعض النقود، رأيته يقول لرئيسه إنه انتهى حالاً من رش أمتعتي. مجموعة اليهود ناقشوه كثيراً، وفي النهاية وبعد طول نقاش كان عليهم أن يدفعوا له "بتشيشاً" مثلـي. لم يكن هذا بالأمر المريح على الإطلاق، فكيف يحدث هذا في الأرض المقدسة؟ ما زلت أشاهد أمامي بعض المناظر: جماعة اليهود تقوم اليوم أيضاً بما قامت به من قبل أثناء أدائهم الصلوات، بينما الأتراك كانوا يتمتعون بسماع الموسيقى المنبعثة من "الجراماфон"؛ وكانوا إذا ما شعروا بالجوع أكلوا الخيار، وبعد المغرب وبسرعة ينامون على سطح السفينة.

النزول من السفينة

في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الرابع والعشرين من مايو سمحوا لنا بالنزول من السفينة، شاهدت الرجل العجوز المسؤول عن التدقيق في جوازات المسافرين، كان يضع طريوشـا أحمر على رأسه، حين شاهد جواز سفرـي ظهرت علامات الدهشة على وجهه وصاح:

- آه، أنت ياباني؟

وسلمـت جواز السفر ومضـيت وسط الزحام...

ركبت "الحنطور" حتى وصلت إلى "فندق أورشليم"، ذكر أنه في بنـاير من هذا العام زار ياماـدا تورانوسـكيه القدس، وسمـعت منه كلامـاً عن الرجل الذي يمتلك بيت الشـرق في القدس، اسمـه هـاينـس مـان، وقد زـارـني هنا، كما قـابلـتـ أيضـاً بـعـثـة تصـيـرـية تـسـاعـدـ اليـهـودـ، كانـ لـدىـ وقتـ لـكـنـيـ لمـ أـكـنـ أـرـغـبـ فيـ أنـ أـشـاهـدـ بـيـتـ شـيمـونـ (سيـمونـ)؛ ومنـ هـنـاـ أـخـذـتـ القـطـارـ متـجـهاـ إـلـىـ الـقـدـسـ.

هـذاـ القـطـارـ تـابـعـ لـشـرـكـةـ فـرـنـسـيـةـ، وـهـوـ يـزـدـحـمـ عـادـةـ بـالـرـكـابـ فـيـ الـكـرـيسـمـاسـ وـعـيـدـ الـفـصـحـ، وـهـذـهـ الـأـيـامـ وـنـحـنـ فـيـ شـهـرـ مـاـيوـ - لاـ يـوـجـدـ أـىـ زـحـامـ، وـيـقـومـ

القطار برحلاة واحدة في اليوم، ويكون القطار من خمس عربات كلها درجة ثانية ولا يوجد في القطار عربات للدرجة الثالثة، وفي كل كابينة سريران، أحدهما فوق الآخر، نظرت إلى المسافرين معن، نفس جماعة اليهود التي كانت تسافر معن بالسفينة، شاهدت رجلاً مع زوجته لا أدرى جنسيتها، وكان يرافقني أيضاً رجل أعمال شامي، وقس كاثوليكي يعلق على صدره صليباً فضياً يتذلّى من رقبته، ويحمل في يده مسبحة طويلة، وراهبة تغطي رأسها بغطاء أبيض وترتدي ملابس الراهبات السوداء.

منظر الطريق

بعد أن خرج القطار من حدود مدينة يافا انطلق وسط الصحراء، وبعد ذلك شاهدت أشجار فاكهة البرتقال وقد أزهرت أزاهير صفراء، كما شاهدت أشجار الليمون والتين والرمان والمشمش والعنب والنارنج، كانت الأشجار خضراء، شديدة الحضرة بشكل ملحوظ، ومن ورائها ظهرت حقول القمح تغطي المرتفعات والهضاب، وتمتد بحيث تبدو للناظرين كأنها تتصل بالسماء، وهناك هضاب ومرتفعات يسكنها اليهود، كان لونها أخضر يميل إلى الزرقة، وشاهدت أسراباً من طائر اللقلق بأعداد كبيرة جداً، يقول الناس إن هذه حقول شالون.

لقد انتهى موسم الأزهار، إلا أنه أمكنني أن أرى بعض الأزهار البرية الصغيرة على طول الطريق تزين جانب خط السكة الحديد، وكانت أشاهد أحياناً قطعان الخراف التي ترعى الحشائش الخضراء. كان المنظر بدبيعاً... جاء إلينا بعض الأطفال يبيعوننا "التوت" الأحمر، اشتريت منهم قليلاً من التوت، وجالت بخاطري ذكريات الطفولة، فحين كنت في السابعة أو الثامنة من عمري وفي مسقط رأسي كنت أعيش تناول التوت، وما زلت أتذكر كيف تخضب يدائي وأسنانى باللون الأحمر... لقد هيّج منظر التوت بداخلي ذكريات أيام الطفولة.

وصل القطار بعد ساعتين إلى منطقة جبلية، شاهدت صخوراً متفرقة على المرتفعات، لم يكن هناك وجود للماء في المناطق المنخفضة، وصل القطار إلى مكان آهل بالسكان، شاهدت أشجاراً متفرقة تنتشر في الحقول وشاهدت مزارع

وخراباً وبيوتاً شيدت من الطين، وكان هناك طريق واسع تسير فيه عربات تجرها الخيول وتسير فيها الدراجات، ولاحت امرأة تحمل "شمسيّة" تقيلها أشعة الشمس، تقطف بعض الأزهار، بينما كان بعض الأطفال يصفقون بعد أن شاهدوا القطار يقترب منهم، يا تُرى أين هذا المكان؟! وأين أنا الآن؟ كما لو كنت أحلم... أو خدعني ثعلب مكار وجاء بي إلى هذا المكان دون أن أدرى... لكن لست أدرى حقاً أين أنا... وبينما أنا غارق في أفكارِي انتبهت إلى وصول القطار على مشارف ضواحي مدينة القدس.

اثنا عشر يوما في القدس وما حولها

الليلة الأولى

في الساعة السادسة من مساء يوم الرابع والعشرين من شهر مايو غادر القطار بلدة يافا ومضى يقطع الطريق لأربع ساعات حتى وصل إلى القدس !!
ها هي القدس! وصل مسئولو الفندق إلى المحطة لاستقبالى، كان من السهل عليهم أن يكتشفونى من بين جموع المسافرين، أنا المسافر القادم من الشرق حاملا في اليد اليسرى "زكيبة" بنية اللون فيها أمتعة، وفي اليد اليمنى أحمل حقيبة جلدية قديمة، وأضع تحت إبطى شمسية أو عصا اشتريتها من سفناfore، والشعر طويل مع لحية طويلة إلى حد ما، أما البشرة فهي متسخة والجسم معتل من وعثاء السفر.

حين أجرت عربة حنطور وركبت وسائلى السائق عن وجهتى، سمعته يتاؤه حين سمع إجابتى... صدرت عنه آهة طويلة، بينما تقدم ناحيتى شاب أوروبى واقترب على أن استقل عربة حنطور أخرى، كان هذا الشاب هو ابن أخي صاحب الفندق، ويدعى روبرت... شاهدت امرأة سمينة ضخمة تجلس في عربة حنطور، ظنت أنها مسافرة وراكبة مثلى لكنى عرفت فيما بعد أنها زوجة صاحب الفندق.
مضت بنا عربة الحنطور في طريق واسع بينما كانت الشمس تميل إلى الغروب، كنا متوجهين إلى الناحية الشمالية لمدينة القدس، على جانب الطريق كنت أشاهد جدارا بارتفاع نحو ثلاثة أمتار، قال روبرت: هذا حائط جبل صهيون.

وبعد مدة شاهدت برجا قيل لى إنه برج داود، وهو موجود منذ عصر هيرودس، كان منظر القدس هذا يختلف عن المنظر الذي رسمته للمدينة في مخيالي أو المنظر الذي كنت أتوقعه أو حتى أفكر فيه، ووصلت إلى الفندق الذي كان يقع بالقرب من منطقة معسكر الروس في شمال غرب مدينة القدس القديمة^(١) يبدأ موسم الحج إلى القدس في الكريسماس ويستمر حتى أبريل، وقد انتهى موسم الكريسماس وعيد الفصح، لذا لم يتعد عدد نزلاء الفندق الاثني عشر نزيلا.

عند الساعة العاشرة أطفأت ضوء الشمعة وبدأت النوم، كانت هذه أول ليلة لي في القدس، بدأت الاستعداد للنوم، وقفت لأصلى للرب صلاة الشكر، وتطلعت من نافذة غرفتي، شاهدت النجوم كما لو كانت على صفحة بحر واسع، وبدأت أحدث نفسي وأتساءل: تُرى كيف كان هذا المنظر قبل ١٩٠٠ سنة

إلى بلدة أريحا

اليوم هو الخامس والعشرون من شهر مايو، ليلة أمس وجدت بعض المسافرين الذين ينونون الذهاب إلى بلدة أريحا، فاقترحت عليهم أن أرافقهم في سفرهم، فرحبوا بي.

استيقظت مبكرا، واستأجرت عربة حنطور يجرها ثلاثة خيول، كانت جماعتنا تضم رجلاً في منتصف العمر، كان قدماً من زنجبار في إفريقيا حيث كان يقوم بالتبشير بال المسيحية هناك منذ ست سنوات، وعرج على فلسطين ليزور القدس وهو في طريق عودته إلى موطنه إنجلترا، كان يدعى "ماكئه"^(٢)، وكانت تضم أيضاً مواطناً من زنجبار، وهو قس يعمل بالتبشير في وسط إفريقيا ويدعى "عبد الله"، كانت بشرته سوداء فاقعاً لونها، وكانت شفتاه غليظتين، وشعر رأسه أكتر، كان عبد الله في منتصف العمر تقريباً، ويتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة، وهدفه الوحيد من القدوم هنا هو مشاهدة الأرض المقدسة مثلثاً تماماً، فلم يكن لقدومي هنا أيضاً من هدف غير هذا الهدف. قال ماكئه: نحن الذين جئنا من إفريقيا وأسيا وأوروبا نمثل أبناء سام وحام وبافث، وكان السائق شامي بينما كان مساعدته بدوي، كان السائق الشامي يضع في خصره مسدساً، وهو ضروري في منطقة أريحا للحفاظ على سلامتنا من قطاع الطرق.

(١) أطلق عليها المؤلف لنقط القلعة القديمة ويعنى بها القدس القديمة داخل الأسوار. (المترجم)

(٢) ورد الاسم بحروف الكلناكانا التي تكتب بها الأسماء غير اليابانية وربما كان النطق الصحيح "ماكين". (المترجم)

بعد أن عبرنا بوابة دمشق انطلقنا شمال أسوار مدينة القدس^(٣) اتجهنا ناحية الشرق... ناحية الوادي، حيث شاهدنا على اليمين سوق القدس، وشاهدنا أشجارا كثيفة مختلفة ومتنوعة، مضينا عبر دروب ضيقة ملتوية، حيث كنا نشاهد دور عبادة مختلفة الأشكال والمعمار، وشاهدنا أسوارا كثيرة أسفل الهضاب والمرتفعات، ذكر ماكئه أن بعض المناطق المحاطة بالأسوار ملك جماعة المسيحيين اللاتين، لقد سبقني ماكئه إلى هنا، فقد مضى عليه عشرة أيام، لذا يعرف المنطقة جيدا، كان الطريق يمضي بالقرب من مقابر قديمة أحياناً وحديثة أحياناً أخرى، وبعد مدة وجدنا أنفسنا بين بيوت بنيت بالطين وطلبت باللون الأبيض، يتراوح عددها بين عشرين بيتاً وتلذتين، يطلقون عليها "بيت آنبا"، وقررنا أن نزورها أثناء عودتنا، ومضت الخيول تجر العربة دون توقف عبر جبال بركانية، كان الطريق غير ممهد ومملوءاً بالحجارة، ولا وجود لخضرة ولا ماء، إلا أنني كنت ألمح بعض الأزهار البرية مثل أزهار الخشخاش وغيرها، وكنت أشاهد أحياناً السحالى بلونها البنى التي تشبه صغار التماسيع.

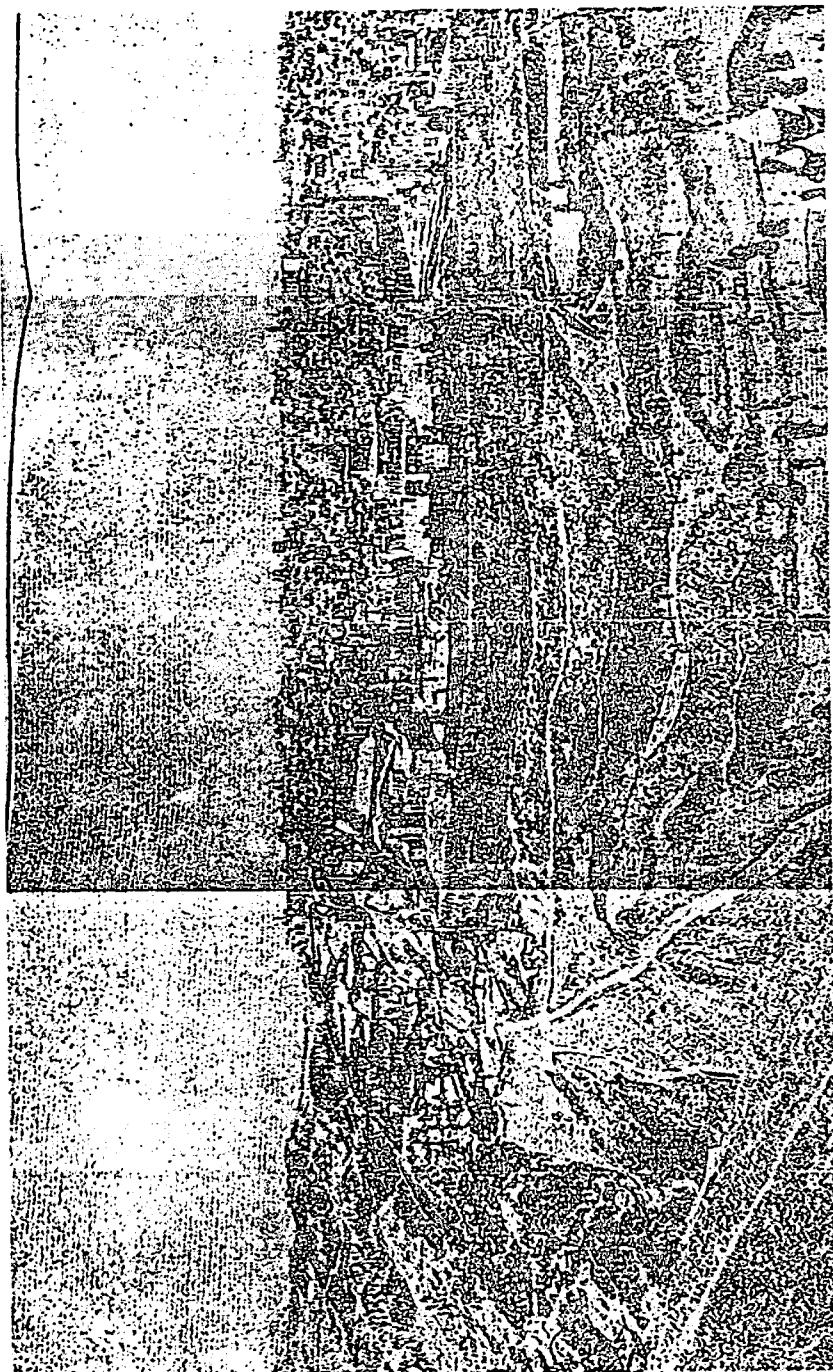
بعد أن عبرنا عين ماء صار الطريق أكثر وعورة وخشونة، كما صار أكثر التواء وانحناء، كان يصادفنا في الطريق بعض أهالى المنطقة الذين يمتنون ظهور الحمير، ويحملون البنادق ربما للدفاع عن أنفسهم ضد قطاع الطرق، تذكرت "السامرى الصالح"^(٤) لأنني وجدت مقهى كتب عليه (السامرى الطيب) فاسترخنا فيه قليلاً، ثم تابعنا رحلتنا، وبينما كنا نمر بين الجبال شاهدنا منظر البحر الميت، نزلنا من العربية، ونظرنا أمامنا فبدا لنا المنظر كما لو كان هناك شبح فاغرا فاه لنا مثل شبح دانتى في الكوميديا الإلهية^(٥).

(٣) أطلق عليها المؤلف دائماً لفظ القلعة، ربما لأن القدس كانت محاطة بالأسوار. (المترجم)

(٤) انظر تفسير إنجيل لوقا: ١. (المترجم)

(٥) الذي يظهر المذنبين من ذنبיהם. (المترجم)

بلدة أريحا (منظر عام)



وادي أريحا واد منخفض يبلغ انخفاضه عن القدس نحو ٣٧٠٠ ثلاثة آلاف وسبعمائة قدم وعن مستوى البحر نحو ١٢٠٠ ألف ومئتي قدم، وهذا مكان لا مثيل له في العالم من حيث الانخفاض، هدوء شديد وسكونية موحشة، ومنظر أقرب إلى الكاتبة منه إلى أي شيء آخر^(١)، كان يمكنني أن ألمح من بعيد جبلاً أحمر اللون ربما يبعد نحو ثلاثة أميال، وفي مقابلة ومن الناحية الجنوبية يقع وادي الأردن الذي يمتد إلى البحر الميت. تغطي النباتات الخضراء وادي نهر الأردن، وهي نباتات شديدة الأخضرار المشوب بالسواد، وحافة الوادي تقع على البحر الميت، وهناك عدد محدود من البيوت المحاطة بأشجار الجوز... كان المنظر موحشاً، هنا يمكن تاربخ أكثر من خمسة آلاف عام، أتعجب فهل يا ترى عاش أهل سادوم وعاموراً هنا^(٢) ماذا عن إبراهيم؟ وماذا عن قوم لوطن؟ وماذا عن جوشوا، وزكريا وابن مريم؟ أين ذهب هؤلاء؟

وسط هذا المنظر الملوك بالهضاب والجبال، والملوك باللأاء والسماء الممتدة إلى ما لا نهاية، وجدت نفسى أفكرا في مأساة العقاب الشديد الذى سيتحقق بالمدنبين. ما زالت الخيول تضرب بحوارتها الأرض، تسحب العرية فى تناغم غريب عبر الدرب المنخفض، حتى وصلنا إلى نهر صغير، ثم دخلنا قرية أريحا "العصر الحاضر" وألقينا الرحال فى فندق الأردن.

استغرقت الرحلة منذ غادرنا القدس نحو ثلث ساعات، كانت حرارة الوادي شديدة جداً، تذكرت البحر الميت... أخذت "تعسيلة" فقد كنت مرهقاً، واستيقظت من غفوتي، ورأيت لا أخرج حتى تكسر شدة الحر.

البحر الميت

كما ذكرت، استيقظت من غفوتي، كانت الساعة الثانية بعد الظهر، ركبت عربة الحنطور التي مضت بنا خارج بلدة أريحا في رحلة استمرت عبر طريق ضيق،

(١) حين زار توكتومى كينجيزرو لوقا أريحا كانت وقفاً وإمارة تابعة للقدس، وكان يقد عليها الكثير من المستكشفين الأوروبيين والبعثات التبشيرية، وكانت أعمال التنقيب قد بدأت في تل السلطان، واكتشفت أديرة القديس جورج وبونا العمدان سنتي ١٩٠١ و ١٩٠٤ على التوالي، وقد وصل كتابنا سنة ١٩٠٦م. (المترجم)

(٢) المدينتان اللتان احرقهما الله بالنار كما جاء في سفر التكوين ١٩. (المترجم)

ورغم وجود أشجار فإننا نادراً ما كنا نشاهد الحشائش الخضراء، صار الماء بلون الطين، وشاهدت في بعض الأماكن أشياء بيضاء متشرقة لا أدرى ما هي. وصلنا عند الجزء الشمالي للبحر الميت، ووقفت بالقرب من شاطئ البحر الميت أنظر أمامي من الشرق إلى الجنوب على امتداد نحو ثلاثة أميال، ومن الشمال إلى الجنوب على امتداد نحو عشرة أميال، في الزمن القديم كان هذا الماء على ارتفاع ١٠٠ مئة قدم فوق سطح البحر، لكن الآن صار أقل من سطح البحر ١٢٠ ألفاً وثلاثمائة قدم^(٨) راقبت لون الماء ووجده أخضر فيه صفرة، كما أنه لم يكن صافياً، وهو كثيف لاحتوائه على مكونات زيتية، أما الطعم فهو مالح جداً وفيه مرارة، وإذا ما غسلت به يدي أشعر بأنها تحمل بقايا زيت أو دهن، وقد سمعت أنه لا يوجد في هذا الماء أى نوع من أنواع المخلوقات، ولذا تعجب عبد الله حين التقى سمكة صغيرة، إلا أن القدس "ماكئه" تدارك الأمر قائلاً بأن هذا النوع من السمك قدم من نهر الأردن العذب، وقد ضل طريقه ودخل خطأ في البحر الميت حيث مات بسبب ملوحة الماء ومكونات عناصرها.

كان منظر البحر الميت في غاية الجمال، لكنه أيضاً كان مخيفاً، يقال إنه دخل هنا نحو ٦٥٠ ستمائة وخمسين ألف طن من الماء العذب في يوم ما ومعظمها تبخر، وبالتالي لا تبقى إلا المواد الصلبة. هذا ما كان يعرف قديماً باسم "بحيرة لوطن" بحر ماؤه دون حياة، فهو بحر يقتل المخلوقات، وجال خاطري هنا وهناك وبدأت أفك في أمور كثيرة ... فهناك بحر ميت أيضاً في فزان الإنسان، وهناك بحر ميت في تاريخ البشرية، ولنفكر في بنى إسرائيل كما لو كنا نشاهد شيئاً مخيفاً، إنهم مثل البحر الميت!

ما زلت أطلع إلى هذا المنظر: الجبل ناحية الشرق، ذات مرة ألقى موسى بعين الإيمان والرجاء آخر نظرة على كنعان، يسمى الجبل جبل نيبو^(٩)، ومن الناحية الغربية للجبل ظل المسيح فوق الصخرة أربعين يوماً^(١٠).

(٨) يبلغ طوله ٤٢ ميلاً وعرضه عند أوسع مسافة ١١ ميلاً.

(٩) يقع في الأردن، ويرتفع ٨٠٠ متر عن سطح البحر، ومنطقة الجبل تطل على البحر الميت، ويقال إن فيه مقام النبي موسى (عليه السلام) فقد مات ودفن فيه. وقد ورد في التوراة "اصعد إلى جبل عباديم هذا جبل نيبو الذي في أرض مواب الذي قبالة أريحا" ويعتقد المسيحيون أن النبي موسى (عليه السلام) وقف على جبل نيبو مع قومه ورأى الأرض الموعودة التي لم يصلها، وأنه توفي ودفن (عليه السلام) في جبل نيبو. (المترجم)

(١٠) ذكر المؤلف عبارات رمزية استمدتها من سفر الخروج، فكتنان طبقاً للإنجيل هي الأرض التي وعد بها الله إبراهيم ونسله، وجاء في سفر الخروج أيضاً: ما أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في

بين الماضي والحاضر ولآلاف المرات تكرر الموت، وفنت أجيال من بعد أجيال، هذا وادي الموت، وادي البحر الميت، لقد رسم هيرمان هونت صورة لعملية الـ scapegoat تستحق الرؤية، وقد مضى على ذلك نحو خمسين عاماً⁽¹¹⁾ الآن في هذه المنطقة أشاهد كوخا مصنوعاً من السعف والغاب مسقوفاً بالقش، وأمام الكوخ دجاجات تقر الأرض بحثاً عن الحبوب، بينما تُشرِّط شبكة صيد!

نهر الأردن

انطلقنا من البحر الميت مرة أخرى، ومضينا على طريق ضيق تحفه أشجار لا أعرف أسماءها وحشائش خضراء، وبعد نصف ساعة أوقف السائق عربة الحنطور بالقرب من نهر، وقال السائق الشامي موجهاً حديثه لنا:

هذا هو نهر الأردن، يجري الماء في النهر بسرعة كبيرة مثل حرف كو(و) فـ اللغة اليابانية، مثل السهم وبانحناء شديد، في الجهة المقابلة شاهدت أشجاراً أزهارها بيضاء، وأعشاباً امتدت سيقانها وتمايلت بفعل الرياح، وعلى حافة النهر امتد نبات البردي بكثرة، كما شاهدت أشجار الجوز، كانت الأعشاب الطويلة تتمايل وتتموج في حركات جميلة تعطي انطباعاً بأن نهر الأردن يحمل بين ضفتيه ماء الحياة، فاليسعى تظهر بهذا الماء، لكن الماء هذه الأيام لم يعد صافياً، ولم يعد رقراقاً، ولم يعد شفافاً، طاله التلوث، سألت مرافقيَّ عما إذا كان المسيح (عليه السلام) قد تطهر بهذا الماء أم لا؟ فقالوا:

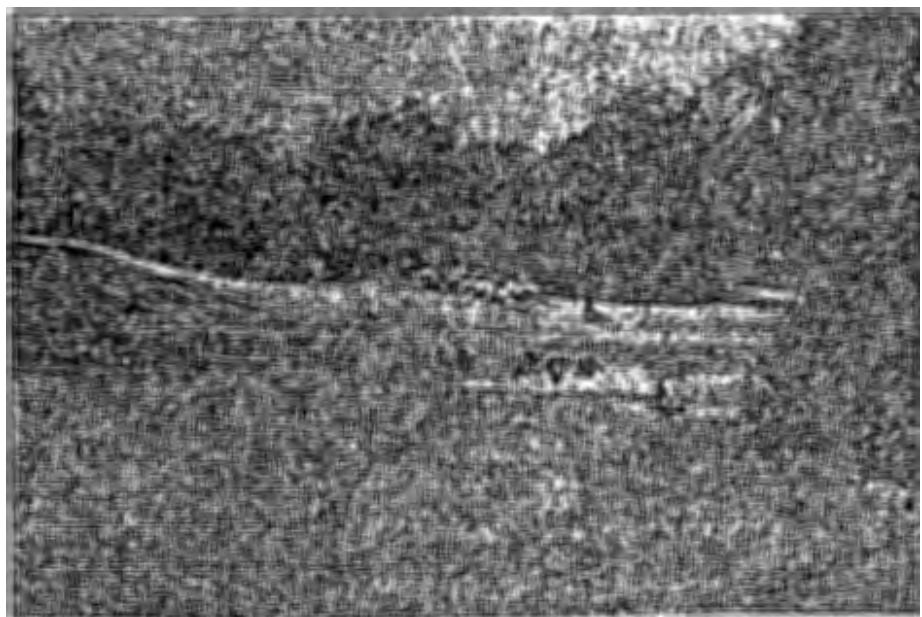
نعم تطهر، والناس الذين يأتون للحج إلى القدس يتظاهرون أيضاً بهذا الماء.

عندي خل عبـ الله ملايسه بسرعة، وقفز إلى النهر وظل يسبح حتى وصل إلى الضفة الأخرى، وأخرج ماكئته زجاجة صغيرة من جيبه وملأها بماء نهر الأردن ليحملها معه هدية، أما أنا فاكتفيت بمشاهدة هذا الماء الذي لم يعد كما كان شفافاً، ومع أن الماء لا ينطق بالكلمات فإني شعرت بصدى كلمات تخاطبني تتردد في داخلـي:

(11) طبقاً للدراسات المسيحية يشير المصطلح scapegoat إلى فداء المسيح الذي تحمل ذنوب البشرية، حيث سيق إلى البرية خارج المدينة بأوامر من الكهنة الكبار. (انظر يوحنا ٢٩: ١) تذكر التفاصير المسيحية أنه كانت خطيبة الشعب هي الخلفية والمناسبة لإعطائهم هذه العطية، الماء من الصخرة التي تمثل النعمة الإلهية للإنسان الذي لا يستحق، في النعمة نزل القضاء على يسوع المسيح لكي ينزل الروح القدس على المؤمنين. (المترجم)

لماذا جئت هنا؟ وماذا ت يريد أن تشاهد؟ لماذا جئت إلى نهر الأردن هذا؟
افتح عينيك! افتح عينيك!

ظل صدى هذه الكلمات يتتردد بداخلي، أنا حقاً أعمى البصيرة، أنا فقط أريد
جمال المظاهر، إنه لأمر مخجل، أتمنى لو فقلت عيناي لأن أصبح أعمى بحق! وعندما
أرى الجمال الحقيقي... مدلت يدي ولست الماء، بل وضعتها في النهر، وشعرت
أن الماء يجري في صمت، بينما كان نبات البردي ينحني كأنه يؤمن على أفكارى
ويقول: "نعم! نعم! نعم!" مع كل انحناءة.



وادي الأردن

بعد عشر دقائق نودى على لأركب العربية مع رفاقى بينما صدى الكلمات كان
لا يزال يتتردد في أذنى:

- افتح عينيك وافتح بصيرتك!
آه، يا نهر الأردن! إنك تمضي وتجرى إلى الأبد!

من الأرض المنخفضة مضت الخيول تجرُّ بنا العربية، وصعدنا طريقاً من بعد طريق، لم يكن الأمر سهلاً فالطريق كان مملوءاً بالحجارة الصغيرة، ناهيك عن الجراد الذي انتشر في الجو بكثرة، وجعل السائق يضرب الخيل بسوطه دون توقف تقريباً؛ يريدها أن تسرع أكثر فأكثر، وبينما هو كذلك أشار إلى اثنى عشرة قطعة حجر كأنها تماثيل، وقال هذه صنعوا جوشوا ، وكانت هناك كنائس وبيع وأديرة للأرثوذكس اليونانيين والكاثوليك اللاتين وغيرها من طوائف المسيحية الأخرى، شاهدت راهباً يمشي تحت أشعة الشمس المحرقة، ذكرني هذا الراهب برهبان العصور الوسطى.

بعد ساعة تقريباً دخلنا بلدة أريحا، وهي قرية صغيرة لا يعيش فيها كثير من الناس، لهذا فهي هادئة، إذ كان يمكنني أن أسمع خرير الماء، بينما كنت أمتع ناظري بمشاهدة الأشجار اليابعة والنباتات والأعشاب الخضراء، شاهدت نباتات كثيرة تتبع إلى فصيلة النباتات الاستوائية، وشاهدت أشجار الجوز وأشجار التوت ونباتات الدفل والخشائش المائية، كما شاهدت أشجار العنب والرمان، وكانت جميعها متمرة ثماراً يانعة حان قطافها.

كان الناس يطلقون على هذا المكان في يوم ما قرية التخييل، لكن اليوم لا توجد أشجار التخييل بكثرة كما كان الأمر في السابق، وأريحا الحقيقية كانت قرية من الجبل وقد شاهدنا آثارها القديمة، وعدنا ثانية إلى فندق الأردن.

تحولت حرارة النهار في المساء إلى برودة... أكتب بعض الخطابات وأنا أجلس في الحديقة، هناك شجرة ضخمة، شاهدت من حولها أسرة صغيرة مكونة من أعداد من الدجاج مع فراخها، ومن خلف الحديقة توجد أشجار البوص الرفيعة، وهناك شجيرات الورد البلدي، بينما نسمات الهواء البارد تهب تملأ الحديقة بعبير الورد ورائحته الذكية... حين رفعت رأسي شاهدت فوق سماء قاتمة الزرقة، وكان القمر ربيعاً في أوله إذ ظهر نصفه فقط مثل معدن خام يميل إلى صفرة الذهب، وبينما كان كوكب الزهرة يتلألأً مثل نقطة الزئبق الراجح، صفق عبد الله وصاح مشيراً إلى كوكب الزهرة:

- انظروا إنه قمر جديد، إنه قمر جديد في سماء القدس!

بعد تناول طعام العشاء أويت إلى الفراش، سمعت صوت بومة تصير صوتاً كأنه الأنين... إنها ليلة مقمرة في أريحا، سمعت صوت إطلاق عيار ناري واحد، بعدها ساد الصمت، وكان صمتاً بلا حدود، كنت بين اليقظة والنوم، عيناي كانتا على وشك الوصول إلى مرحلة الرؤيا! وأى رؤيا تلك! يا للخجل! ليلة مقمرة في أريحا أروع من أى قصيدة شعرية.

الماضى والحاضر فى بيت عانيا (بيتانيا)

فى الساعة الرابعة من صباح يوم السادس والعشرين من شهر مايو ركينا عربة الحنطور ومضينا عبر الوادى، وحين وصلنا إلى منحدر لفت نظرى من ناحية الشرق نور كوكب الزهرة في السماء، وبسرعة كبيرة طلعت الشمس فوق جبل الأردن، كان هناك ضباب في سماء الوادى، بينما البحر الميت كان لا يزال نائماً، وشاهدت بقايا دخان، فيبدو أن بعض الناس كانوا قد أشعلا النيران هنا، ما أحمل شروق الشمس، فمنظر الشروق ينم عن شجاعة كبيرة، حين توارى الظلمة أمام شجاعة النور.

أغادر الآن أريحا متوجهًا إلى القدس، كنا نمضى في طريق صاعد، واسترحنا عند مقهى (السامرى الطيب) التي مررنا بها من قبل، وعند الساعة الثامنة نزلنا باتجاه "بيت عانيا"^(١٢) شاهدت ما بين ٢٠ بيتاً إلى ٣٠ مبنية بالطين اللبن ومطلية باللون الأبيض، وهي مغبرة بالأترة. سألت امرأة طاعنة في السن إن كان لديها مفتاح "بيت مريم المجدلية"، فردت بالإيجاب، وأشارت إلى أن هذا هو البيت، بيت بسيط جداً، لا يحتوى على أى شيء، حيطة من طين، وحجارة هنا وهناك، والبيت بلا سقف، أشجار الرمان مع شجيرات أزهار برية تنتشر في المكان، كنت أحاول أن أشاهد أين قبر العازار الذي كان المسيح قد أحياه بعد موته، فحملت شمعة، وكان على أن أهبط درجات سلم لأعرف لهذا قبر حقيقي أم مجرد خدعة؟ ظللت أستطلع المكان للحظات ثم صعدت، وأخذت أطلع حولي من جديد، وأدقق النظر، لكنني لم أتمكن من أن أرى أى جزء من مدينة القدس، لأن الجبال كانت تحول بيني وبين ذلك. في الناحية الجنوبية شاهدت مرفعات وهضاباً وعرة، تعلو وتهبط مثل أمواج البحر، من بيت لحم إلى وادي اليهود.

(١٢) وردت في الإنجيل والتوراة بيت عانيا وبيتانيا، وهكذا تكتب أيضًا Betania، ويطلق عليها أيضًا العيزرية نسبة إلى "العازار" الذي أحياه المسيح بعد موته ودفنه بأربعة أيام، وقد أشار المؤلف في السطور التالية إلى أنه كان يود أن يشاهد القبر لكنه يشك في ذلك ولا يصدق. (المترجم)

يا بيت عانيا (بيتانيا)! لقد قدمت فى أوقات كثيرة وسادة أثيرية لراحة أبناء البشرية، لا يمكن أن أشاهد ما يجعلنى أتخيل صورة مريم المجدلية هنا، ولا يمكن أن أجد من أهل هذه القرية الآن من يجعلنى أتصور أو أتخيل صورة مريم المجدلية، لكنى أشاهد كلبا يرقد فوق سطح بيت مستوٰ، ودجاجة تسعى لجمع أفراخها، بينما يقف طفل نحيف يمتص إصبعه، ورجل عجوز مع امرأة عجوز يتطلعان إلى الزائرين القادمين من بعيد!

بيت عانيا! اسمك سيورث للعالم الآخر مع مريم المجدلية.

رجعت الفندق فى الساعة التاسعة من صباح اليوم نفسه.

القدس فى الوقت الحاضر (عام ١٩٠٦)

يبلغ سكان مدينة القدس فى الوقت الحاضر نحو ثمانين ألف نسمة، إلا أن هذا العدد يرتفع فى موسم الحج ليصل إلى نحو مائة ألف نسمة، ستين بالمائة من اليهود والآخرين من المسلمين والأوروبيين، وفي شمال غرب القدس المسورة يعيش الأوربيون واليهود، وهناك مستشفى ومدارس ومبانى القنصليات والسكن، كما توجد مطاعم، ودار للأيتام، وفنادق خصصت للسياح القادمين للحج، بعض المناطق السكنية كانت مزدحمة مبانيها وضيقه شوارعها، بينما فى مناطق أخرى توجد مساحات فارغة كثيرة طبقاً لطبيعة الأرض وجغرافيتها، ولاحظت أن المساكن مبنية أعلى المرتفعات، بينما بنيت أخرى فى مدرجات منخفضة، وهكذا.

معظم السكان يعيشون داخل المدينة فى المناطق الضيقة، فالقدس أساساً قلعة مسورة بنيت فوق الجبال على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وفي الناحية الشمالية الغربية توجد جبال بركانية، وتوجد جبال غير مرتفعة فى الناحية الشمالية الغربية مثل جبل صهيون^(١٢) وهو فى الجنوب الغربى، وجبل موريا^(١٤)، وهناك جبل "أكر" حيث توجد كنيسة القيامة ميلاً وجبل "تيريتا"، والمسافة إلى البحر الأبيض المتوسط تبلغ اثنين وثلاثين ميلاً، والمسافة حتى البحر الميت تبلغ أربعة عشر ميلاً.

(١٢) ويعرف أيضاً بجبل داود. (المترجم)

(١٤) هو الجبل المقام عليه المسجد الأقصى.

يقال إن الإمبراطور الروماني تيتوس هجم على المدينة واحتلها، وكان قدر المدينة مثل قدر أبناء إسرائيل صعوداً وهبوطاً، حتى جاء الإسلام، فتمكنوا لأول مرة من دخول القدس بعد أن كان الرومان قد منعوهم من ذلك، ثم كانت حروب الصليبيين، واستمر التاريخ صعوداً وهبوطاً... لا أشاهد هنا غير السماء والجبال ثم الأسوار التي صنعتها الإنسان من الصخور والأحجار، لا يوجد غير ذلك، وقد أسس سور القلعة خارج مدينة القدس في العصور الوسطى^(١٥)، وقطره الدائري يبلغ نحو ميل ونصف، وارتفاعه ٣٨ قدمًا ونصفًا، وعليه ٣٤ برجًا، وهناك على الأسوار بوابات ثمانية: البوابة الشرقية وببوابة ستيفانو وفي الشمال بوابة هيرودس وببوابة دمشق وفي الشمال الشرقي البوابة الجديدة وفي الغرب بوابة يوتسبوبا^(١٦) وفي الجنوب بوابة صهيون وأيضاً بوابة التطهير^(١٧). ويقال إن المساحة الكلية للمدينة نحو ٢١١ فدانًا، من بينها ٣٦ فدانًا فيها بقايا الأديرة التي بناها الرومان، وداخل هذه المساحة يوجد نحو ٢١١ مسجداً لل المسلمين، وهناك أحيا منفصلة خاصة بال المسلمين واليهود والنصارى والأرمن، ولكل منهم دور عباداتهم الخاصة وأماكن تجمعهم، بالإضافة إلى الثكنات العسكرية والمدارس وال محلات التجارية والأسواق، فلكل من هذه الطوائف حياتها الخاصة منفصلة تماماً عن حياة الآخرين، والطرق تمضي ملتوية صعوداً وهبوطاً وتمضي شمالاً ويسقطنا بشكل معقد كأنها متاهة "القدس".

قبر الخلاص

في المساء أنوى زيارة كنيسة القيامة وزيارة قبر الخلاص^(١٨)، ولا بد أن أشحد ذاكرتى حتى لا أنسى الطرق المتلوية فأضيع في متاهة القدس، علقت في ذاكرتى

(١٥) بنى السلطان العثماني سليمان القانوني سوراً حالي لتحديد القدس القديمة جغرافياً سنة ١٥٤٢ م.

(١٦) ورد في كتب وصف القدس أن للسور أربعة أبواب مغلقة، وبسبعين مفتوحة هي: باب الخليل، والباب الجديد، وباب العمود، وباب الساهرة، وباب المغاربة، وباب الأسپاط، وباب النبي داود. (المترجم)

(١٧) ينقسم قبر الخلاص من الداخل إلى غرفتين، الفرفة الخارجية عبارة عن دهليز لإعداد الميت، ويقال لها كنيسة الملائكة، أما المدخل الصغير المنقط بالرخام فهو باب الحقيقي للقبر الأصلي والذي تم إغلاقه بعد موت المسيح كما يقول الإنجيل، وفي وسط الدهليز نجد عموداً قصيراً يعمي تحت الزجاج قطعة أصلية من الحجر المستدير الذي سُدَّ باب القبر، ويوصل إلى القبر باب ضيق، فتجد إلى اليمين مقعداً من الرخام يغطي الصخرة الأصلية التي وضع عليها جسد يسوع.

جرسا حتى لا أنسى التواهات الطريق، ورغم هذا ضعف، وضلال الطريق، فرجعت أدراجي إلى المكان الذي بدأت منه، ووجدتني أضيع ثانية وسط المتابة، وهكذا استعنت بالمرشد ليدلنـى على الوصول إلى كنيسة القيامة، وقد زرت دير مار إبراهيم، وهو خاص بالروم الأرثوذكس، وقيل إنه بني في عهد قسطنطين، وله أهمية لمعظم نصارى العالم^(١٨).

دفعت فرنكا من أجل شمعة، وتبعـت المرشد الذى شرح لـى كثيراً من الغرائب... كنت كمن خدعـه ثعلب مكاراً! المكان أشـبه بكـهف صخـرى، الأرضية من الرخام الذى يبرق بلون فضـى وبلون ذهـبـى، وكـأن الإنسان فى حـلم أو كـأنه واقـع تحت تأثير سـحرـ، تـوـجـد قـاعـة للصلـلةـ، وهـنـاك قـاعـةـ من داخـلـها قـاعـاتـ أـخـرىـ، أو هـىـ دـهـالـيزـ، زـحـفـتـ لأـدـخـلـ إـلـىـ تـلـكـ القـاعـاتـ الصـغـيرـةـ، ولـأـصـلـ إـلـىـ قـبـرـ المـسـيحـ، شـاهـدتـ إـحـدىـ الفـتـيـاتـ تـقـبـلـ غـطـاءـ القـبـرـ، وـهـوـ مـنـ الرـخـامـ الأـبـيـضـ، وـفـيـ السـقـفـ عـلـقـواـ شـمـعـادـاـ، وـهـذـهـ كـلـهـاـ جـلـبـهـاـ الرـومـ الأـرـثـوذـوكـسـ، وـهـنـاكـ شـمـوعـ لـلـأـرـمـنـ والأـقبـاطـ، شـاهـدتـ خـمـسـينـ قـسـيسـاـ مـنـ الرـومـ الأـرـثـوذـوكـسـ يـرـتـلـونـ التـرـاتـيلـ تـجـاهـ القـبـرـ وـيـرـفـعـونـ أـيـادـيهـ الـيـمـنـىـ تـجـاهـ الـفـمـ وـالـرـأـسـ، وـكـانـواـ يـدـورـونـ فـيـ حلـقاتـ^(١٩)، وـشـاهـدتـ المـكـانـ الـذـيـ أـخـذـ فـيـهـ إـبـرـاهـيمـ إـسـحـاقـ لـيـقـدـمـهـ ذـبـيـحةـ^(٢٠)، وـشـاهـدتـ قـبـرـ آـدـمـ وـمـاـ يـطـلـقـونـ عـلـيـهـ مـرـكـزـ الـعـالـمـ، وـتـسـلـقـتـ عـشـرـ درـجـاتـ أوـ اـشـتـىـ عـشـرـ درـجـةـ

(١٨) وقد سمي بهذا الاسم تيمناً بالتقليد المسيحي الذي يقول إن إبراهيم (عليه السلام) جاء إلى هذه الصخرة ليقدم ابنه قرباناً، ويوجد في الكنيسة مذبح وشجرة زيتون على الجدي بقرونها. وتوجد بئر عظيمة تحت الدير، كما توجد إلى اليمين كنيسة مار يعقوب للأرمن وكنيسة أقدس ميخائيل للأقباط، وإلى يسارها ثلاثة كنائس مكرسة للقديس يعقوب والقديس يوسف والشهداء الأربعين، والدرج الذي إلى اليمين قبل الدخول إلى الكنيسة يؤدي إلى معبد سيدة الأوجاع ويقال له أيضاً كنيسة الإفرنج، وهي للأباء الفرنسيسكان الذين يختلفون فيها بالقداس الإلهي كل يوم، وتحت هذه الكنيسة تقوم كنيسة أخرى مكرسة لقديسة مريم المصرية. (المترجم)

(١٩) وتحتضن المدينة المقدسة خورس الروم الأرثوذكس ويقع مقابل القبر المقدس، ويحتل الجزء المركزي من البازيليك كلها. وكان في الماضي خورس الآباء القانونيين أيام الصليبيين. وكذلك كنيسة الأقباط، تقع خلف القبر المقدس في مؤخرته حيث حضر فيه هيكل. وتوجد كنيسة السريان الأرثوذكس في آخر الرواق مقابل هيكل الأقباط، وهناك ممر ضيق بين العمودين يؤدي إلى قبر محفور في الصخر يعود إلى أيام المسيح. (المترجم)

(٢٠) دير مار إبراهيم للروم الأرثوذكس، وقد سمي بهذا الاسم تيمناً بالتقليد المسيحي الذي يقول إن

لأشاهد فجوة فيها صليب مغطى بالفضة، نظرت من الفجوة إلى أسفل فشاهدت الأرضية تبرق بفعل الشموع، أخذت شمعة ومضيت لأشاهد غرفة صغيرة مثل الكهف، شاهدت صورة ماريا مرسومة وكأنها تنظر إلىَّ من وسط الظل، ومن الخلف كانت هناك حجرة تصل إليها جماعات العياد من أجل الصلاة، شاهدت هذا المنظر رغم الظلمة، ورجعت مرة أخرى إلى المكان الذي يطلقون عليه مركز العالم^(١١) حيث الأضواء الساطعة بفعل الشموع الكثيرة، كانت الأنوار تتموج، فتجعل من الأضواء بين الشموع قطعاً من الأحجار الكريمة، تمكنت من رؤية صورة للمسيح ومريم وتلامذته، وسمعت صوت تراتيل الكتاب المقدس، الذي كان مثل أمواج تمضي في تغييرات عذبة وسلسة، وكان صدى صوت التراتيل يتربّد في الكنيسة كلها، كما لو كنت في حلم، تذكرت قول أحد الحكماء الرومان بأن الناس الطيبين يعيشون بإيمانهم بالله.

حائط الملكي (البراق)

سألت طفلاً ليرشدني إلى حائط المبكى^(٢٢)، فدلني على الجانب الشرقي، كان حائطاً عالياً من خلفه توجد ميادن، يطلّون عليه حائط المبكى، يبلغ ارتفاعه نحو ١٦ متراً وطوله نحو ٤٧ متراً، وأسفل الحائط حجر كبير بحجم مترين ونصف عليه كتابات بالعبرية، وهي عبارات للصلوة، كانوا يضربون الحجر بالمسامير كما لو كانوا يريدون له أن يحيى أو يستيقظ من ثباته، وفي الحائط شاهدت بين الأحجار أعشاباً نمت ووروداً متفرقة، بالنسبة لى كان هذا المنظر يبعث على

(٢١) هيكل سليمان المزعوم، والذى له مكانة خاصة فى العقل اليهودي، فهو يقع فى مركز العالم، وقد بُنى فى وسط القدس التى تقع فى وسط العالم، وقدس الأقداس يقع فى وسط الهيكل، فهو بمثابة المركز، وأمام قدس الأقداس حجر الأساس (النقطة التى عندها خلق الإله العالم). (المترجم)

(٢٢) الاسم الحقيقي عند المسلمين حافظ البراق نسبة إلى الدابة التي ركبها الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند إسرائه من مكة إلى المسجد الأقصى، حيث ربط البراق في حلقة عند هذا الحافظ ودخل المسجد وصل بالأنبياء ثم عرج به إلى السموات العلا، والحافظ جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى، وهو وقف إسلامي، وقد اعتبره اليهود مصلٍّ منذ بداية القرن السادس عشر، وزادت أهميته عندهم في القرن التاسع عشر، وحين زار توكوتومي كينجيزو القدس كانت السلطة العثمانية قد سمحت لليهود المقدسين بأداء بعض الطقوس الدينية قبلة الحافظ، وقد حاول بعض اليهود شراءه من الدولة العثمانية إلا أنهم فشلوا. (المترجم)

الأسى والحزن، فمعظم اليهود يتجمعون يوم الجمعة في هذا المكان، ويذكرون ماضيهم وينخرطون في البكاء على حاضرهم، وبعضهم يقوم بتقبيل الحائط أو السجود على الأرض والبكاء وهو يرتلون تراتيل خاصة:

“عند الحائط نجلس ونصل من أجل الماضي ولمن ماتوا، نتذكر صهيون من أجل أن يجمع أبناء إسرائيل، أسرعوا لإنقاذ صهيون... سوف تعود مملكة إسرائيل وترجع إلى صهيون، السلام يحل على صهيون”.

قدم قليل من الناس اليوم، شاهدت أربع نساء أو خمساً يجلسن وينشدن بعض التراتيل. كنيس اليهود ليس فيه زخارف أو ألوان ذهبية، مبني بسيط، التقيت برابي يضع على رأسه قبعة صوفية مميزة، ثم اتجهت إلى السوق حيث شاهدت الخراف المذبوحة والمعلقة يغطيها الذباب لدرجة أنها صارت كلها بلون أسود، كما شاهدت عجوزاً يجلس على الأرض أمام دكان له مثل الكهف يخيط نعلا، كما شاهدت قطيعاً من الماعز.

كان كل شيء قدراً لأن القذارة تتحرك هنا وهناك... حين تلقى بالنظرية الأولى على القدس من خارج أسوارها تعجب بالطبع، لكن مشاهدة المدينة نفسها داخل الأسوار يجعلك تود لو تحرق المكان كله .

صليل الجرس

اليوم هو السابع والعشرون وهو يوم إجازة، سمعت صليل الأجراس في الصباح الباكر، فخرجت إلى الشرفة لأشاهد المنظر، كانت شرفة غرفتي مواجهة لجبل الزيتون، وكان يمكنني أن أشاهد سور القدس الشمالي، وهو يمضي بشكل انحداري غير مستو، ومن ناحية جبل الزيتون كان يمكنني أن أرى جزءاً من الجبل المحيط بالبحر الميت، أشعة الشمس المنبعثة من خلف جبل الزيتون ملأت الآن الحديقة، وتحت قدمي تناثرت ثمار التين، بينما كنت أستمع لشقشقة العصافير. ما زالت أجراس الكنائس تدق، وصدى صلليلها بدا كأنه يحرك نسمات جو الصباح الذي امتلاً بالنور، كان صوت أجراس الكنيسة الروسية يأتي من بعيد، بينما صوت الجرس المثبت فوق كنيسة القيامة بقبتها المستديرة والصلب الواضح

جداً كأنه قريب مني يدق بصوت عالٍ، لكنني لم أكن أدرى من أين تصدر كل هذه الأصوات التي كانت تأتي من الكنائس والأديرة المتبااعدة والمتقاربة الموجودة في هذه النواحي؛ فقد كانت أصوات الأجراس الشديدة تأتي من الكنائس القريبة بينما الأصوات الضعيفة تأتي من تلك الكنائس البعيدة، وكل هذه الأصوات التي يحمل كل واحد منها رنينه المميز، توحدت معاً وصارت صوتاً واحداً متاغماً صاعداً إلى السماء. آه! يا له من صباح جميل! ما أجمل صوت الأجراس!

مالك القدس

من شرفة غرفتي شاهدت رايات وأعلاماً ترفرف فوق مبانٍ عالية بالقرب من مسجد عمر، حيث توجد أيضاً كنيسة حولها مقابر عليها صلبان، بالنسبة لليهود من المعروف أنهم فقدو الهيكل الذي تهدم، وهو الآن في مكان ما تحت مدينة القدس، من يحكم القدس الآن؟ تعجبت من الناحية السياسية يحكمها الأتراك، والمسلمون بنوا مسجداً، كما يقول اليهود بنوه على بقايا قصر سليمان. من يدرس التاريخ ويركز على التاريخ سيقول بالطبع: إن القدس ليست لليهود، لأن القدس هذه ليست هي "أورشليم" التي كانت قبلًا.

على كل حال تتعدد دور العبادة في أنحاء فلسطين، وهناك الآن تنافس بين المسيحيين بطوائفهم المختلفة وبين اليهود، والجميع يركز على الآثار، ويحاول أن يكشف أحقيته في المكان، وبينهم بلا شك صراع شديد، وقد قام كل منهم ببناء المدارس ودور الأيتام، وهم يديرون المستشفيات، وأسسوا جمعيات تبشيرية، وبشكل أساسى يحاول البريطانيون والأمريكيون والألمان السيطرة على القدس، ولا ي يريدون تركها لأحد، وهذا اشتد الصراع بين اليهود والمسلمين وأحفاد الصليبيين، كل منهم يتتصارع من أجل القدس، من هو صاحبها؟ ومن هو مالكها؟ أتعجب، فالآن أشاهد أمامي الموقف الدولي بشكل واضح! كل واحد هو عبد الله، وكل واحد يمكن أن يكون صاحب القدس، لكن الله علیم خبير، وهو يقبل المؤمن الأمين المتسامح الذي يحب أخيه كما يحب لنفسه، المؤمن العادل، الله يقبل من يحمل هذه الصفات ليكون مالكاً للقدس.

قططان النصارى (زى النصارى)

في الصباح قدمت إلى كنيسة يرتفع عليها العلم البريطاني، وضعوا في المدخل الرئيسي صليبا ذهبيا، ووضعوا شمعة ضخمة، وكان المطران يرتدي "قططاناً أحمر ويوم الصلوة، شعرت بجو من الهيبة والعظمة داخل الكنيسة، لكنى لم أكن سعيدا، في طريق عودتى رأيت مشهدا عجيبا، كان هناك عدد من اليهود الطاعنين في السن يقفون معا ويتبادلون الحديث في موضوع ما، وشاهدت نحو خمسة صبية أو ستة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرهم يضعون الطرابيس على رءوسهم، ويعمدون إلى مضائق اليهود، ثم بدأوا يلقون عليهم الحجارة. تعجبت كثيراً بينما بدا اليهود كأنهم تعودوا على مثل هذه المضائق، فكانوا ينظرون فقط إلى الأولاد دون أي رد فعل من جانبهم، إن أسرة روتشيلد (٢٣) هم من نفس جنس هؤلاء العواجيذ، لقد قام آل روتشيلد ببناء مدرسة لأبناء هؤلاء العواجيذ وأحفادهم، لكن أظن أن هؤلاء يحتاجون إلى شيء آخر مِنْ غير الأقارب الأغبياء.

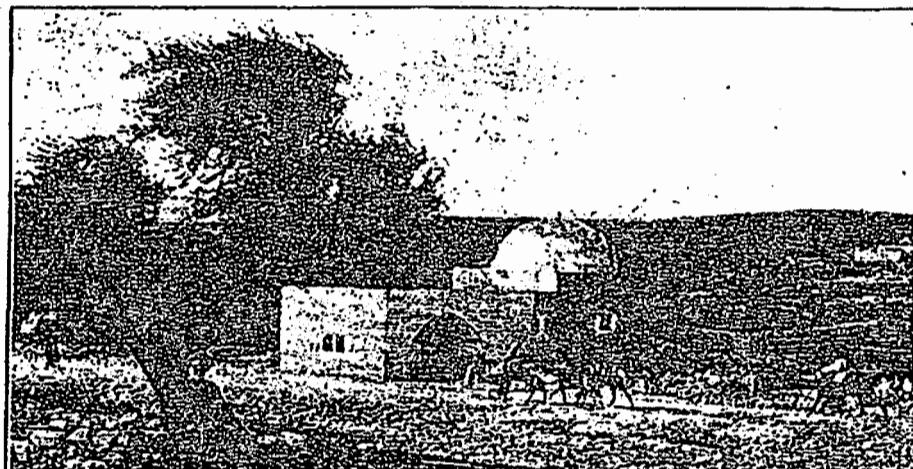
بيت لحم

ذهب ماكئيه وعبد الله صباح اليوم إلى الناصرة، أما أنا فسوف أشاهد بيت لحم مع روبرت الشاب الذي استقبلنى وصحبى يوم وصولى إلى الفندق، سوف أمضى عبر وادى "هنوم" الذى يمر إلى الجنوب والغرب من مدينة القدس. مشيت مع روبرت مسافة ميلين تقريبا، على اليمين وعلى الشمال حدائق من عنب، وهناك أديرة ومستشفيات، كما شاهدت في الطريق قبر راحيل (٤) تفرع الطريق إلى طريقين، أحدهما يؤدي إلى الخليل والأخر يؤدي إلى بيت لحم، هذه المرة لن أذهب إلى الخليل، سأذهب مباشرة إلى بيت لحم. في الجانب الشمالي من الهضبة شاهدت بيوتا مبنية من الطين والحجارة، تعلوها الأتربة، وبلغ عدد السكان هنا عشرة آلاف نسمة، ويعملون أساسا بالزراعة، كما يستغلون بعض

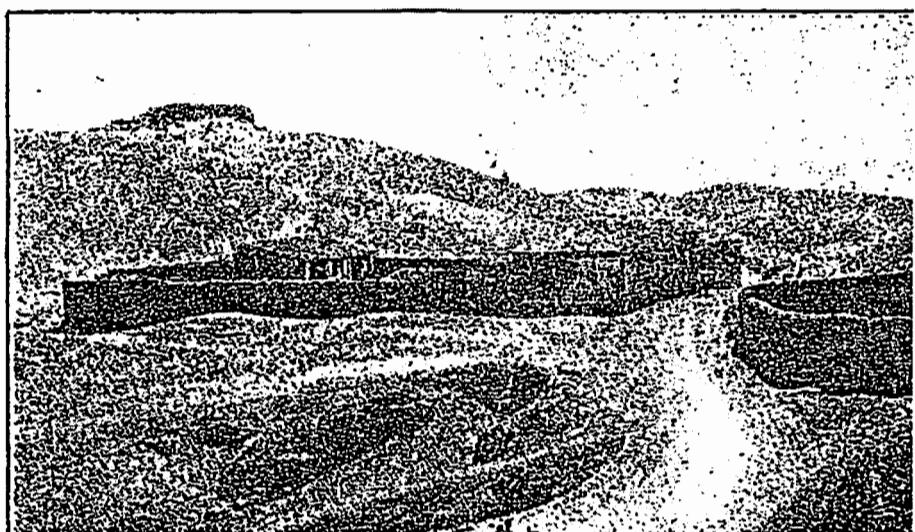
(٢٣) أسرة يهودية أوروبية ثرية، لها أيضا ثروة كبيرة في أمريكا، لعبت دوراً مهما في إحكام سيطرة اليهود على فلسطين، وكانت الركن الأساسى لتصور وعد بلفور. (المترجم)

(٤) الزوجة الثانية ليعقوب، وهي أم يوسف وبنiamin، دفنتها يعقوب في بيت لحم، وأكثر زوار قبرها من اليهود. (المترجم)

الصناعات اليدوية من الخشب أو المحار، ويوجد دير سانت ماريا في ناحية من البلدة، وهو ملك لثلاث طوائف: الروم واليونان والأرمن، ويدور بينها صراع وقتل شديد أحياناً، كل منهم يدعى ملكيته للدير، ولهذا قدم العسكر الأتراك لحراسة الكنيسة.



قبر راحيل



الطريق إلى يافا

يقولون: هنا كان مولد المسيح (عليه السلام)، سأذهب لأرى مسقط رأس المسيح، تفرجت مع روبرت على عدة أماكن، وصلت إلى مكان يشبه الكهف، أمامه صورة لفارس يقتل طفلاً، طبقاً لمعلومات مرافقى ومرشدى الشاب روبرت فإنهن قد وجدوا بقايا عظام كثيرة في هذا الكهف ^(٢٥)، إذا كان هذا الأمر صحيحًا فسوف أصلى من أجل هؤلاء الأطفال الصغار، بدلاً من أن أصلى لله من أجل يهوا! كان روبرت يشير إلى أماكن متفرقة في البلدة هنا وهناك، هضاب بألوان بنية داكنة، ووديان تقطيها الحضرة الزاهية، وحقول القمح المترامية المتموجة... قال روبرت هذه حقول "بوعز" ^(٢٦) حيث كان الراعي يرعى ليلة ميلاد السيد المسيح عليه السلام. أغمضت عيني... جاءني من بعيد صوت الناي الذي كان ينفع فيه أحد الرعاة فيصدر أجمل الألحان والنغمات، هنا كثير من الذكريات، هنا في بيت لحم تذكرت أشعار الأزمنة القديمة!

حديقة الجثمانية (Gethsemane)

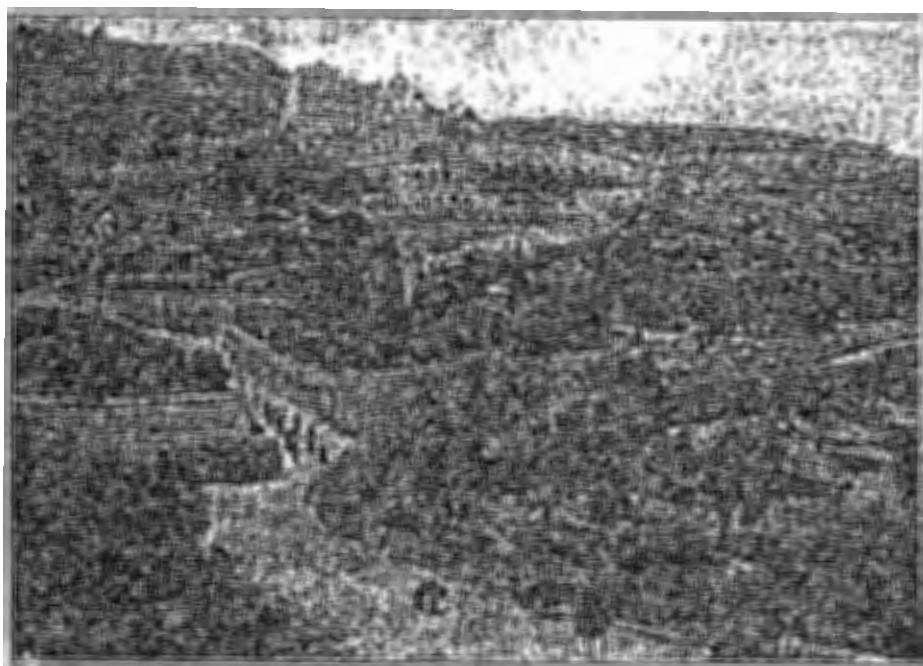
رجعت من بيت لحم، وفي المساء ذهبت إلى منطقة جبل الزيتون لزيارة حديقة الجثمانية ^(٢٧) زرت حديقة الجثمانية، ولم أر قبر ماريا... آه، حطمت الحقيقة أحياناً أحلامي الجميلة، إذ لم أر قبر ماريا المجدلية، وبعد ذلك وصلت إلى مكان محاط بجدار حجري، قالوا إن هذه المنطقة هي "الجثمانية"، وهذا هو المكان الذي يقابل فيه يهودا المسيح، وأشاروا على صخرة، وقالوا هناك تحت هذه الصخرة ثلاثة من تلامذة المسيح مدفونون تحتها، يبلغ نصف قطر الحديقة نحو سبعين

(٢٥) يوجد كهف يمين كنيسة العذراء يسمى غار العذاب، وقعة سيطر عليه الرومان الفرنسيسكان منذ السفلية سنة ١٣٩٢م، كما سيطروا على حديقة الجثمانية التي سيرد ذكرها فيما بعد سنة ١٦٨١م. (المترجم).

(٢٦) بوعز هو ابن شلمون وراحاب، وطبقاً للتلمود كان بوعز تقياً ورعاً وحكى ما معلمـاً. (المترجم)

(٢٧) الجثمانية أو جتسيمانى Gethsemane حديقة تقع أسفل جبل الزيتون في القدس، وتعرف بأنها مكان صلبي فيه المسيح (عليه السلام) مع تلاميذه، وتتناول فيه العشاء الأخير قبل القبض عليه. والموقع الأصلي لا يزال غير معروف، وطبقاً لما ورد في الكتاب المقدس هو المكان الذي اعتاد المسيح أن يأوي إليه مع تلاميذه، والذي سمع ليهودا أن يجده فيه ليلاً ويقبض عليه. (المترجم)

خطوة، وشاهدت ثمانى أشجار قديمة جداً محاطة بسياج حديدي، قيل إن أقدمها يرجع إلى قبل أربعينية سنة أو خمسينية، ومع هذا فهي مورقة بأوراق خضراء يانعة، وهناك فجوات وفتحات في جذوع الأشجار تبدو مثل الكهف، ولاحظت أنهم زرعوا أيضاً الموالح مثل البرتقال والليمون، وهناك شجيرات أزهار متفتحة، وحين يأتي الزائرون هنا يطلبون منهم تبرعات لحماية هذه الأشجار، والحدائق ملك لللاتين^(٢٨).



حديقة الجثمانية

(٢٨) كان اللاتين قد بنوا حائطاً حول قطعة الأرض هذه، وحافظوا عليها حديقة عامة، أما الإغريق فأعتقدوا أن الحديقة الفعلية تقع في الجنوب الشرقي قليلاً من هذه الحديقة. (المترجم)

بعد أن خرجم من الحديقة طالعتى مباشرة كنيسة الروس الأرثوذكس بقبابها المتميزة، سبعة قباب متوعة الحجم ما بين الكبير والصغير، وكانت تلمع وتسقط بأشعة ذهبية، لكنى لم أدخل الكنيسة^(٢٩). أظن أن القدس مكان يجعلنى أغلق عينى، لقد أصببت بالإحباط، لم أجد حقاً ما كنت أحلم به، ولم أر حقاً ما كنت أطمع فى رؤيته... من الأفضل أن أغلق عينى وأتخيل صور الماضي!

جبل الزيتون

حديقة الجثمانية! جتسيمانى! غادرتها ولم أشاً دخول كنيسة الروس الأرثوذكس، ومضيت، تسلقت منحدراً مملوءاً بالأحجار مدة عشرين دقيقة حتى وصلت إلى قمة جبل الزيتون، الطائفة اللاتينية شيدت كنيسة، وفي منافسة لهذه الطائفة قامت الطائفة اليونانية ببناء برج عال ي تكون من ستة طوابق، صعدت سلم هذا البرج وأحصيت درجات السلم فوجدتها ٢١٤ درجة، وصلت قمة البرج، وتلفت حوالى... من هنا حيث أقف على ارتفاع نحو مئتي قدم عن مستوى القدس، من هذا البرج يمكن أن تشاهد كل شيء من حولك، ويمكنك على وجه الخصوص مشاهدة المنطقة القريبة من القدس بكل تفاصيلها، كما يمكن التعرف على تفاصيل مدينة القدس: جبل الزيتون، ومن ورائه قبة الصخرة، ثم تشاهد جبل صهيون، وتشاهد أشكال الكنائس بقبابها والمساجد بمامذنها، وتشاهد صليان الكنائس وأهلة المآذن، وتشاهد الأسقف المسطحة والأسقف المدور، وتشاهد كل الألوان: الأبيض والبني والقاطم واللامع، كما تشاهد أحياناً خضرة الأشجار، وتضاريس متنوعة ما بين مرتفعات وهضاب وسهول ووديان، تختلط كلها بعضها ببعض لتشكل صورة طبيعية أتقنها الخالق... مدينة القدس بين جبل الزيتون ووادي هنوم Hinnom، الطريق الواسع الأبيض يمضي ملتويًا ويتعرج بين الحين والحين ليصل إلى بوابة المدينة، وهناك أشجار كثيفة، أشجار زيتون وأشجار عنبر موجودة بكثرة، والناس والحمير يتحركون معًا هنا وهناك، والقدس تبدو مغطاة بتتموجات من الجبال والهضاب، إذا كان علىً أن أشاهد حقاً القدس فلا بد أن أختار جبل الزيتون هذا.

(٢٩) هناك كنيسة الروس الأرثوذكس بقبابها الذهبية بصلبة الشكل على النمط البيزنطي الروسي، والتي بناما قيصر روسيا ألكسندر الثاني تخليداً لذكرى أمه. (المترجم)

يقال إنه في عهد المسيح كان جبل الزيتون منخفضاً، وكانت أسوار المدينة أضخم كثيراً مما هي عليه الآن، ويقال إن الهيكل كان مبنياً في هذه المنطقة، إلا أنه وسط هذا الجو المهيب يمكننا من ناحية أخرى أن نشاهد دماء القدس، يمكننا أن نشاهد القدس المحطمة. ماذا يقول المسيح؟ وبم يشعر إذا ما شاهد هذه الحالة؟

في الناحية الشرقية أمكنني أن أشاهد وادي الأردن وبيت عانيا وبيت باغيه وفي الجنوب وفي الشمال أشاهد جبالاً وهضاباً بنية الشكل تخالها أمواجاً في وقت ما بعد الظهر.

نزلت من قمة البرج ومضيت إلى هضبة، كان وقت الغروب يدهمني، وهبوب الرياح توقف دون أن أنتبه، بينما تلونت منطقة البحر الميت بلون الشفق الأحمر، وصارت القدس جزءاً من صورة مرسومة بيدي الخالق. من جبل الزيتون إلى هذه الهضبة التي أقف عليها شاهدت حقول القمح الذي تحولت سيقانه إلى اللون الأصفر بينما هناك بعضها ما زال يحتفظ بلونه الأخضر، ومن خلفي كانت أصوات قطعان الخراف والماعز تمضي يسوقها الرعاة، وهم يمسكون بعصا طويلة يوجهون بها قطعانهم. تابعت هؤلاء الرعاة حتى ابتعدوا عن وصاروا كالأشباح، بينما تسمرت في مكانى أشاهد منظر غروب شمس جبل الزيتون!

الجلجثة الأصلية

عانياً كثيراً من مغص شديد في المعدة يوم التاسع والعشرين، أصابنى إسهالاً منعني من الحركة وجعلنى أرقد في الفراش طول اليوم، وفي اليوم التالي اضطررت أيضاً إلى البقاء في الفراش، وفي يوم ٢١ مايو حاولت أن أنهض من فراشي لأذور الأماكن الموجودة خارج أسوار القدس.

شاهدت أكوام التراب بالقرب من المكان الذى يلقى الناس فيه بالقمامنة، يذكر كثير من الباحثين أنها بقايا الجلجثة^(٣٠)، بينما يذكر باحثون آخرون أن المكان

(٣٠) اسم يشير إلى مكان خارج القدس القديمة، يعتقد المسيحيون أن يسوع المسيح صلب عنده، وكان قسطنطين الأول الإمبراطور الروماني قد بني كنيسة القيامة في المكان الذي يعتقد أن المسيح صلب فيه، وقيل إن قبر المسيح والصلب الحقيقي قد اكتشفا في ذلك الموقع من قبل الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين سنة ٣٢٥م، وقد ذكرت الجلجثة في إنجيل متى ٢٧٣٢ ومرقس ١٥٢٢ ولوغا ٢٢٣ ويوحنا ١٩١٧ . (المترجم)

يضم قبر الجنرال جوردن. والآن أقاموا حائطا حول هذه المنطقة، وقد شاهدت قبور كثير من المسلمين، وفي المنطقة مقابر داخل كهوف وغارات، كما توجد مقابر لكتاب القادة العسكريين، أو قبور بعض الملوك العظام! قبور لا حصر لها، ومن بينها مقبرة يطلق عليها مقبرة الجلجلة^(٢١) يعتقدون أنها مقبرة السيد المسيح، إلا أنني لم أشاهد هذا القبرحقيقة لكنني شاهدت أمام المقبرة المزعومة جثة قطة ماتت حدثاً!

وادي الموت

نزلت ناحية جنوب وادي كيدرون (وادي حلوة)، في الجانب الغربي من الوادي أشاهد مقابر المسلمين بألوانها البيضاء، وأشاهد مقابر اليهود المتنوعة: منها سالكبير ومنها الصغير ومنها القديم ومنها الحديث، مقابر لا حصر لها، شاهدت المكان الذي يقال إنه قبر زكريا كما شاهدت قبورا أخرى.

كان المكان مملوءا بالحجارة مثلما كانت عقول الناس وقلوبهم، كانوا دائماً يحملون الحجارة لإيذاء الآخرين... وقتلوا من يقول الحق، ثم وضعوا له قبرا غطوه بهذا الحجر الكبير، من الجدير بالذكر أن معظم القبور التي بنيت هنا حدثاً هي قبور حديثة ليهود من خارج فلسطين، كانوا قد أوصوا بأن يدفنوا في القدس^(٢٢) ، على كل حال هذا مكان يجعل الأسى والحزن.

كان الناس يطلقون على وادي حلوة (كيدرون) وادي النار، لأنهم كانوا يضخون هنا بالأطفال الصغار من أجل صنم الإله "ملك"^(٢٣) ، وهم يقولون إن يوم الحشر سيكون من هذا الوادي^(٢٤).

(٢١) ربما يطلق عليها أيضاً مقبرة البستان! (المترجم)

(٢٢) ورد في سفر زكريا من الكتاب المقدس أن من هذا المكان، جبل الزيتون، سوف يبدأ الله بإقامة الموتى في نهاية الأيام، وبالنسبة للمسيحيين يقال إن المسيح (عليه السلام) صعد إلى السماء من هذا الجبل. (المترجم)

(٢٣) الإله Moloch,Molekh هو إله النار، وارتبطت التضحية بالنار، وكان معروفاً في الشرق الأوسط في الأزمنة الغابرة. (المترجم)

(٢٤) يعتقد اليهود أن الخروج من الأجداث (القبور) يوم القيمة سيتم من وادي كيدرون (وادي حلوة) في القدس. (المترجم)

مضيت أمشي في وادي حلوة، فصادفت هضبة مدبية وشاهدت قرية "شيرو" التي أعيد بناء معظم بيوتها على أنقاض بيوت يعتقد أنها بيوت يهودية قديمة، ومن بعيد لا يمكن التمييز بين البيوت والصخور، ولكن يمكن مشاهدة فتحات سوداء، هي نوافذ تلك البيوت، والقرية بأكملها قرية عربية، كانوا كلما رأوا وجهى سألوني بقشيشاً، كان بعض البناء من لا تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يتعدمن قذف بالحجارة! وكان هذا الجزء من الوادي منخفضاً، لكن إذا نظرت من فوق أمكنك مشاهدة قبة الصخرة، هذا حقاً وادى الموت، وادى الجحيم، وادى الحطام، يجعلنى هنا الوادي أشعر بالاشمئزاز والقرف... أسفل الوادي توجد جداول ماء ينساب فيها ماء قليل، يستخدمه الناس لزراعة بعض الخضروات، كما توجد بحيرة ماؤها ضحل ويبدو أنها مياه غير نظيفة، ربما مياه صرف قذرة، ملقي بها جثث الكلاب والقطط، وبالقرب من هنا مستشفى لعلاج الجدرى... هذا الوادي هو حقاً ذلك الوادي الذي وصفه دانتى في كتابه الكوميديا الإلهية!!

بالقرب من بوابة صهيون هناك قبر داود، وهو ملحق بالحجرة التي يقولون إنه قضى بها آخر أيامه^(٢٥)، شاهدت بعض اليهود يقفون أمام هذا القبر بينما كان بعضهم يجلس، كانوا يقرأون التراتيل بصوت أشبه بطنين البعض!

لقطات متفرقة من مدينة القدس

في أول يومية شعرت بالإرهاق والتعب بسبب سياحتي بالأمس، لهذا فضلت البقاء في الفراش طول اليوم، أنا الآن أعلى من مستوى سطح البحر بألفين وخمسمائة قدم، كنت أرتدي طول النهار ملابس خفيفة، لكنني في الليل احتجت لملابس قطنية ثقيلة. القدس في الشتاء تغطي بالثلوج والجليد، فإذا حدث نقص هنا في شيء ما فيكون في المياه، وهناك أنابيب مياه جديدة تمتد من بيت لحم، كما أن هناك عدة آبار بالقدس القديمة حيث توجد أيضاً بحيرة صغيرة لكن مياهها ليست نقية، بل هي مملوءة بالجراثيم والميكروبات، ولهذا يقوم كل بيت بجمع مياه المطر وحفظه من أجل استخدامه للشرب، وفصل المطر هنا يكون من نهاية شهر نوفمبر حتى بداية شهر أبريل.

* *

(٢٥) يرى بعض الباحثين أن قبر داود الذي على جبل صهيون في القدس هو من صنع القرون الوسطى، أما برجه الشهير فهو عبارة عن صومعة بنتها الجيوش العثمانية للسلطان سليمان القانوني.
(المترجم)

شاهدت أسرابا لا حصر لها من الذباب، بينما تمضي الحمير تنهق بصوت منكر مثل صوت آلة ندف القطن وتقظيفه، وكانت الحمير تحمل الخراف المذبوحة التي فُصلت رءوسها عن أجسامها، زد على ذلك كثرة الحجارة في الطريق، مما يجعله وعراً لا يصلح للمشي، فالهضبة أيضا مملوقة بالحجارة، والأشجار فيها قليلة، ومعظم البيوت مبنية بالحجارة ومطلية بالجير، والسطح مفلطحة أو على شكل هلالى بارز عن مدخل البيت، ليست كأسطح البيوت في اليابان، وهي أيضا من الحجارة، والشارع أيضا معبد بالحجارة، كما استخدمو الحجارة أيضا في بناء الأسوار... أتعجب هل تحجرت قلوب الناس وعقلهم؟

* *

حين تهب الريح تتطاير ذرات الصخور الجيرية في الجو مسببة غبارا كريها، كنت أشاهد الجبال ذات اللون البني والشوارع ذات اللون الأبيض، وأحياناً أشاهد صخوراً رمادية، إلا أن هذه الصخور الرمادية كانت صخوراً متحركة غير ثابتة، إذ أدركت بعد قليل أنها قطبيع من الماعز يتحرك.

* *

كان الجو نقيا جداً والسماء كانت صافية، ويمكننى أن أشاهد على مسافات بعيدة أبعد من جبال الزيتون وجبال البحر الميت، لو أن فلكياً أو شاعراً جاء هنا في ليلة مقمرة، نجومها ساهرة، فسوف يشعر بالسرور والحبور، ولو جاء هنا رسام فلا شك أنه سيستمتع برسم لوحة رائعة لهذا المنظر البديع.

* *

عندما تشرق الشمس تششقق العصافير،
وعند الغروب تنبع السفريان

* *

بداية شهر يونيو، تترافق سيقان القمح، تتمايل، تتحول الحقول إلى أمواج بحر، وبراعم أزهار المشمش والرمان تتفتح، تكشف عن داخلها للعيان، وعند كنيسة الأرمن في القدس هناك آثار بيت "كايابا" وبجواره شاهدت شجرة صنوبر ضخمة جداً قيل إن عمرها خمسمئة سنة.

أعتقد أن الزائر للقدس إذا ما أراد أن يشاهد إياها بشكل جيد فعليه أن يفعل ذلك عند شروق الشمس.

حين تشرق الشمس على القدس فاستيقظ!

استيقظ مع تنفس الصباح!

الضريح المقدس

في يوم الثاني من يونيو ذهبنا للفسحة مع روبرت، وحصلت على تصريح لزيارة الضريح المقدس، كان يرافقنا عسكري تركي بهدف حراستنا، في جنوب شرقى مدينة القدس القديمة عبرنا سوق القطن ثم صعدنا سلالم حجرية ثم دخلنا إلى المكان الذى دفن فيه المسيح وأسمه الضريح المقدس، وصعدنا السالام مرة أخرى ، ثم شاهدنا المبنى الرئيسى لمسجد عمر (عَزَّلَهُ اللَّهُ عَزَّلَهُ) وهو الخليفة الثانى، وهو والد زوجة النبي محمد (صَلَّى اللَّهُ عَزَّلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، والمبنى الذى نراه بناء الخليفة عبد الملك فى القرن السابع الميلادى، وتم ترميمه بعد ذلك عدة مرات، وهذا مكان له مكانة كبيرة فى قلوب المسلمين بعد مكة المكرمة^(٢٦). شاهدت المبنى الثمانى الأضلاع مع قبة عليها هلال، المسجد من الداخل على شكل دائرة نصف قطرها ٥٤٠ خمسينئه وأربعون متراً، والأرضية من الخارج من الرخام المرمرى، والسلف مزخرف بقطع من الخزف الأبيض والأزرق والأخضر، وكل قطعة تمثل بذاتها قطعة فنية صنعت بطريقة خاصة تختلف عن الأخرى، والجدار الداخلى من الزجاج الملون، جعلوا الألوان مختلفة ومتباينة، مع قطع من الصدف والموزايكو، وعلى الجدران كتبت آيات من القرآن الكريم بعرف مذهبة، كما لو كانت هذه الكتابات شجرة "لولاب" متداخلة أغصانها مع الزخارف والنقوش الأخرى، أما

(٢٦) يشير هنا إلى المسجد الأقصى، ومسجد عمر (عَزَّلَهُ اللَّهُ عَزَّلَهُ) يعود تاريخه إلى العصر المملوكى، وهو ليس المكان نفسه بالضبط الذى صلى فيه عمر بجوار كنيسة القيامة، أما المسجد الأقصى الذى يصفه المؤلف، والذى يقع فى البلدة القديمة لمدينة القدس المسوورة، فهو اسم لكل ما دار حول سور الواقع فى أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة القديمة المسوورة، وبعد كل من مسجد قبة الصخرة والجامع القبلى من أشهر معالم المسجد الأقصى، وعلى عكس ما ذكر المؤلف وما يعتقد البعض من أن من بناء هو الخليفة عبد الملك بن مروان، فإن عبد الملك بنى فقط مسجد قبة الصخرة، أما المسجد الأقصى فهو قديم: إذ هو أولى القبلتين وثاني مسجد وضع فى الأرض بنص الحديث النبوى، وفي سنة ١٦٢ هـ = ٧٧٥ م بنى عمر بن الخطاب المصلى القبلى من المسجد الأقصى، وفي عهد الدولة الأموية بُنيت قبة الصخرة، كما أعيد بناء المسجد القبلى ليكتمل البناء بشكله الحالى عام ٧١٥ م. واليهود يقدسون هذا المكان نفسه - أى قبة الصخرة - ويطلقون عليه اسم جبل الهيكل،

الضوء فيأتي من خلال النوافذ المغطاة بشبكة معدنية، كانت الأضواء القادمة من خلال هذه النوافذ أضواء خافتة، إلا أنها رغم ذلك تجعل داخل المسجد أكثر ضوءاً مما يظن المرء لأول وهلة، علاوة على أن الضوء إذا ما وقع على هذه الزخارف يجعل المشهد رائعاً والمنظر داخل المسجد خلاباً.

أرضية المسجد في مركزه من الجرانيت، وهذا المركز يبلغ نحو ١٠٠ متر، وهذا في الأساس يعد من الأماكن التي تزال احتراماً وقدسية كبيرة لدى المسلمين، وقد بني مسجد الصخرة على تلك الصخرة التي يقولون إن إبراهيم (عليه السلام) وضع ابنه إسحاق عليها ليذبحه، ويقولون أيضاً إن النبي محمدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وضع جبهته على هذه الصخرة^(٢٧) كما يقولون إن محمدًا دق هنا ١٩ اتسعة عشر مسماراً بمعنى انتهاء ١٩ اتسعة عشر عصراً من عصور البشرية، على أن العصر التالي سيعني انتهاء العالم، وكان الشيطان يحاول أن يسرع بدق المسمار الخامس عشر إلا أن جبريل أوقفه واحتفظ بثلاثة مسامير، ولا تزال هذه المسامير بلونها الأزرق موجودة في المسجد في هذا المسجد أشياء غامضة كثيرة^(٢٨).

إحدى جوانب الصخرة صارت مفلطحة، وقد جاء الصليبيون هنا، وشاهدت بالصخرة فجوة كبيرة، وحين خطوت بقدمي، صدر صوت كأنه قادم من داخل كهف، إلا أن روبرت قال: لا يمكن القول بأن هيكل سليمان تحت هذه الصخرة.

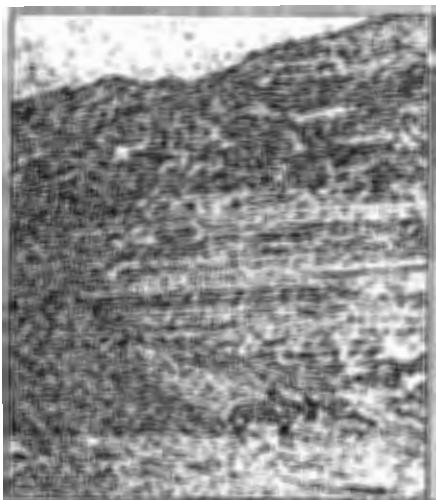
خرجنا من مسجد عمر وزلنا عبر السبلالم الحجرية إلى الناحية الجنوبية، هناك بركة صغيرة، ووصلنا إلى المسجد الأقصى، هذا المسجد كان قد بناء جستيان الروماني ثم صار مسجداً للمسلمين. هنا نشعر بأقدام المسيح أيضاً، وشاهدت عمودين داخل المسجد يقال إنه لو مر أحد من بينهما دخل الجنة! ولما كانت المسافة بينهما ضيقة جداً فإن من لم يتمكن من المرور من بينهما سيدخل جهنم!

(٢٧) ما ذكره المؤلف هنا يحتاج إلى تحقيق، فالرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كما ثبت من كتب السنيرة وغيرها ذهب من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، وهناك صلى بالأقبية إماماً، ثم عرج به إلى السماوات. انظر "رحمة للملائkin سيرة النبي الأمي" للقاضي محمد سليمان المنصور بوري، ترجمة سمير عبد الحميد، ص ٦٤ وما بعدها، ط مكتبة دار السلام، الرياض ١٩٩٥م. (المترجم)

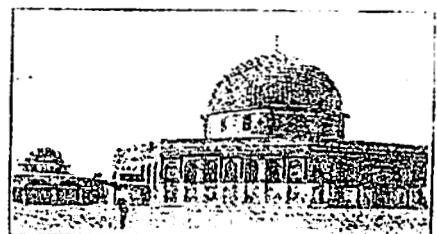
(٢٨) هذه من الخرافات التي شاعت بين الناس في ذلك الوقت. (المترجم)

شاهدت على النافذة المثبت عليها أعمدة معدنية بقايا قطع من القماش، اعتاد الناس القادمون لزيارة المسجد على ربطها تبركاً! خرجنا من المسجد ونزلنا إلى الطابق تحت الأرضي وشاهدنا مكاناً يطلق عليه إسطبل سليمان، تبلغ مساحته نحو ٩٠ تسعين متراً في ٦٣ ثلاثة وستين متراً، وربما كان هذا هو المكان الذي كانت تربط فيه الخيول والخراف والماعز أيام النبي سليمان(عليه السلام) وشاهدنا بقايا فتحات كانت تستخدم لربط الحيوانات.

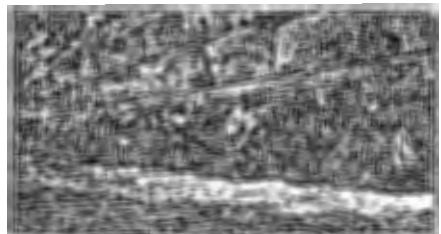
خرجنا من الإسطبل، ومضينا ناحية الشمال وشاهدنا أسفل وادي حلوة (كيدرون)، وجبل الزيتون، وشاهدت حائطاً من الحجارة وفي أسفله صخرة قديمة، وطبقاً لمقولات المسلمين حين يحين يوم القيمة ستتحول هذه الصخرة إلى بكرة من الأسلام تمتد من هنا إلى وادي الزيتون بينما يجلس المسيح (عليه السلام) والنبي محمد(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند وادي الزيتون، وسيقومان بمحاكمة الناس ومقضياتهم، وسوف يمضى الطيبون على السلك بمساعدة جبريل، أما الأشرار فسوف يسقطون من هذا المرتفع إلى جهنم. ويطلق على البوابة الشرقية لهذا المكان المقدس البوابة الذهبية، وقد بنيت في العصور الوسطى، ومن هنا مر المسيح ذات مرة على حماره الصغير، ومن هنا دخل القدس، هكذا يقولون، ولا أحد يعرف متى أغلقت هذه البوابة.



جبل الزيتون



مسجد عمر



حائط البراق (المبكى)

تقع ثكنات العساكر شمال غرب قبة الضريح المقدس، وأسوار بلدة القدس يفصلها عن هذا المبنى طريق ضيق يطلق عليه طريق الصليب، وهذا الطريق يصل إلى "عين كارم" (٤٠). بعد أن مشينا قليلاً وصلنا إلى بوابة على شكل قنطرة مقوسة، هي بوابة يوحنا المعمدان (٤١)، وقد سميت باسمه. بعد أن عبرنا البوابة دخلنا دير راهبات صهيون، وقد شاهدنا طريقاً معبداً بأحجار ترجع إلى العصر الرومانى وكانت على الأحجار رسومات وأشكال يقول الناس بأنها رموز تستخدمن في لعب القمار. دق قلبي حين سمعت هذا، ربما كان الجنود يلجأون لهذا للتخلص مما يصيبهم من إحباط، كانوا يلجأون إلى اللهو والقامرة، وكانوا يلهون بطرق متنوعة، وشاهدت على الطريق أيضاً آثار "حدوة" خيول مضت على هذا الطريق، لكن كل هذه الأشياء صارت تاريخاً ماضياً، وبدأ لي أن القدس القديمة قد دفت في مكان سحيق، لكن الناس وسنة بعد سنة يريدون أن يكتشفوا شيئاً من الماضي، أن يكتشفوا ولو قطعاً صغيرة جداً من الماضي، أعتقد أن القدس

(٤٩) انظر إنجيل يوحنا. (المترجم)

(٤٠) ورد في الأصل كاريوباري، وبعد بحث وجدنا أن المقصود قرية عين كارم في ضواحي القدس التي لم يعد لها وجود؛ إذ احتلتها اليهود في هذة حرب عام ١٩٤٨م، وقسموها وبينوا فيها مستوطنات، ويقال أن عين كارم هي مسقط رأس يوحنا المعمدان الذي شيدت كنيسة باسمه فوق الكهف الذي ولد فيه، ويقال إن المسيح (عليه السلام) والسميدة مريم زارا عين كارم عدة مرات، وذكر الرحالة جيمس بكجهام أن ثمة مسجداً بالقرية وأن شجر الزيتون يكثر في الأودية المجاورة، وأشار الرحالة من بعده إلى وجود كنيسة مار يوحنا الفرنسيسكانية ضمن دير في الجهة الشرقية، وأيضاً دير راهبات صهيون الذي أشار إليه المؤلف فيما بعد، وكنيسة حديثة البناء، وهناك ملجاً روسيًّا كان في طور البناء سنة ١٨٨٢م في أقصى غرب القرية، وقد أشار إليه المؤلف أيضاً، وقد أنشأ الفرنسيسكان مدرسة للبنين، وذكر أيضاً أن راهبات صهيون يشرفن على مدرسة دار أيتام للبنات، كما أن أبوابها ونوافذها على شكل قناطر مميزة، وهو ما أشار إليه المؤلف، ويوجد بها نبع يسمى عين مريم، ويوجد في القرية أيضاً دير مار زكريا والقبور التابعة لكنيسة راهبات صهيون ومسجد بمئذنة يطلق عليه المسجد المعرى تيمناً بعمر (٣٧٣). (المترجم)

(٤١) هو الذي عمد المسيح قبل أن يُقبل بأمر الملك هيرودوس، وقد ولد طبقاً للتقليد المسيحي في عين كارم، وهو يحيى بن زكريا الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، في سور آل عمران ومريم والأنبياء. (المترجم).

المدفونة تعنى المسيح المدفون، لكنى حقاً سعيد أن أعلم أن دير الراهبات هذا يرعى مائة يتيم ينتمون لجنسيات مختلفة وأديان مختلفة دون تمييز بسبب دين أو عقيدة. إن من اكتشف دير الراهبات هذا يهودي اعتنق المسيحية، كانت مرشدتنا راهبة في منتصف العمر، أشارت إلى شخصين في صورة معلقة على الحائط قائلة إنهم يهوديان تحولا إلى المسيحية، وبعد ذلك حاولت أن أصل إلى بركة بيت حسدا^(٤٢) فنزلنا درجات سلم حجري، ووجدت بركة محفورة في الصخر كأنها فوهة في قاع كهف، هذه بركة حسدا^(٤٣) يوجد أمامها شرج عن بركة الماء هذه، وقد كتب الشرح بعدد من اللغات يصل إلى ٥٧ لغة مع جزء من الإصلاح الخامس في إنجيل يوحنا^(٤٤).

دون أدنى توقع شاهدت لفتنا اليابانية مكتوبة بالكانجي، شعرت بالسعادة تفمرني وزادت سعادتي حين قرأت هذه العبارة التي سيقرأها أيضاً كثير من الناس بلغاتهم:

لا تتعجبوا من هذا لأنه ستتأتي ساعة يسمع فيها جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة. أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة لأنني لا أطلب مشيئة بل مشيئة رب الذي أرسلني.

الليلة الأخيرة، الوداع

في اليوم الثالث من شهر يونيو تمر على عطلة الأسبوع الثاني هنا في القدس، غداً أغادر هذا المكان متوجهاً إلى بحيرة طبرية في الناصرة، سأقضى طول اليوم في حزم أمتعتني وتربيتها.

(٤٢) بيت حسدا اسم آرامي معناه بيت الرحمة، لم يذكر إلا في إنجيل يوحنا. وكما تشير بعض المصادر لا يساعد الاسم في تحديد الموقع، فلا يوجد هذا الاسم في القدس، ووقائع القصبة حدثت خارج أسوار المدينة. (المترجم)

(٤٣) تشير بعض المصادر إلى أنها بركة محفورة في الصخر تمتلئ بماء المطر، يهبط إليها بسلام، وهي ملتوية شديدة الانحدار. ويرى العلماء أن البركة كانت عند عين مريم العذراء، مما يؤكد الاستنتاج الوارد هنا. (المترجم)

(٤٤) انظر شفاء مريض بيت حسدا من ٨٤ من العهد الجديد الكتاب المقدس بالعربية، ط الرابعة ٢٠٠٩ ، الإصدار الرابع، دار الكتاب المقدس بمصر، طبع كوريا. (المترجم)

كنا فى وقت الغروب، تتوارى الشمس فيظهر على صفحة السماء قمر أبيض، كما لو كنت أعيش حلما هنا فى القدس، لم يكن ضوء القمر ساطعا بل كان خافتا. لقد وصلت هنا بعد أن قطعت مسافة أربعة آلاف ميل من ناحية الشرق، وغدا سأرحل عن هذا المكان، كنت أتوقع إلى حد ما أنتهى أصبت بخيبة أمل فيما يتعلق يزيارتى للقدس، لكنى الآن وأنا أستعد للرحيل عن المدينة ينتابنى شعور شديد بالحزن، وعلى ضوء الأنوار الخافتة كتبت فى سجل زياتات الفندق ما يلى:

ـ كنت أبحث عن شخص مات، ليس فى هذا العالم، لكنه سوف ينهض، هكذا قال الرب، جئت أبحث بعد مرور ألف وتسعمائة سنة، ويسوع المسيح لا يوجد الآن، توجد الآن فقط آثاره، وكل ما بقى بعد ذلك هو السماء الزرقاء، والهضاب البيضاء، والناس الذين يقاتلون من يكون حكم القدس؟ ولم تكون؟ يا لها من أمور سيئة! قلبى بات مملوءا بالحزن ومفعما بالأسى... أستيقظ وأنهض! أنشر النور، وأكشف بالنور عن عظمة الرب من أجل قدس جديدة.

قلبي يجربنى ويرد علىَ

ـ أتمنى أن ينهض ثانية، ويأتى إلى القدس.

قلبي يتمى هذى كثيرا... طأطأت رأسى، أحلم، أنظر! المسيح قادم... هذه هى القدس، هذه هى المركز، إن راية الصليب ترفرف على البرج المرتفع الوacial إلى السماء، ومن بلاد كثيرة، ومن مناطق متفرقة أنماط كثيرة من البشر يتجمعون، لا توجد حدود لجنسية ولا حدود لجنس من الناس، فالجميع صاروا أسرة واحدة فى هذا العالم، أسرة كبيرة فى عالم واحد، عالم من الحياة، عظمته هو الأب ، يسوع المسيح .

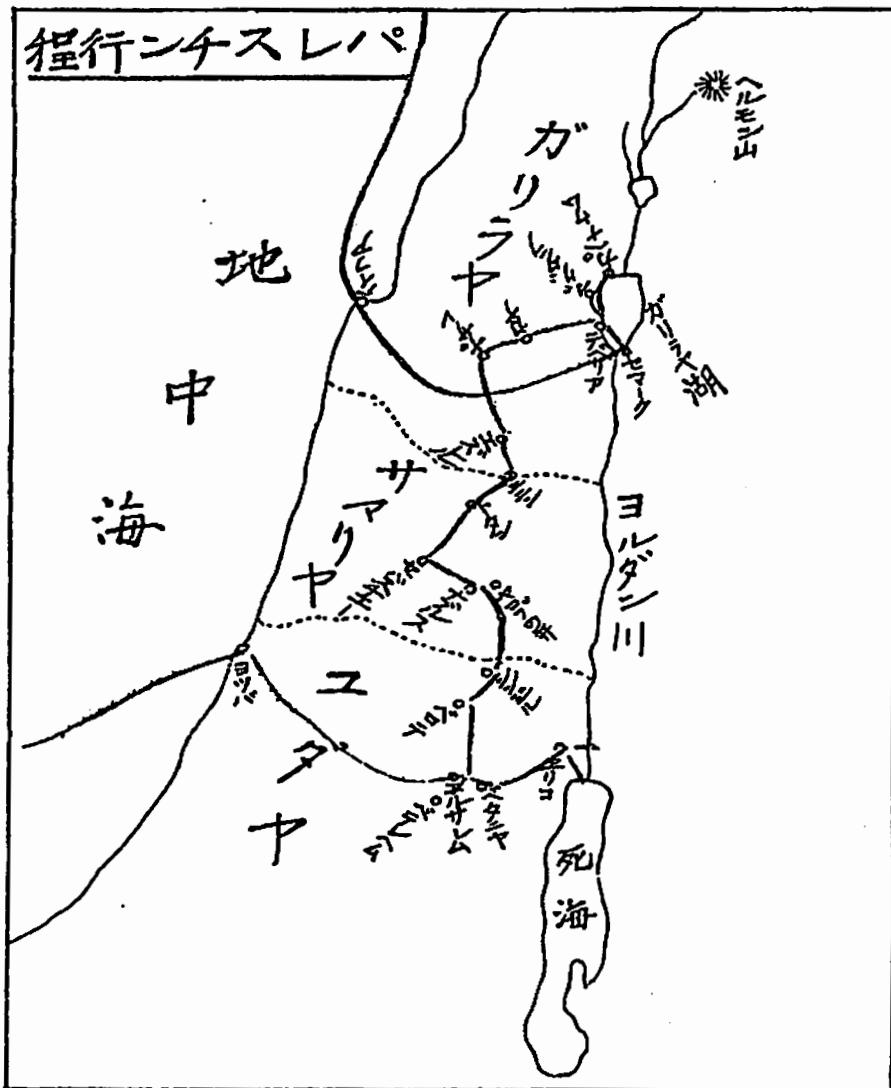
ـ ثم غمرتني السعادة، لكنى أدركت أنى كنت أحلم. آه، كنت أحلم، كان مجرد حلم ليس إلا! فماذا عساى أن أفعل إذا ما تحقق هذا أو لم يتحقق؟ إذ لا يمكننى أن أقوم بهذا وحدى، فيا إخوانى وأخواتى الأعزاء! هيا نصلى معا من أجل أن يعود المسيح إلينا.

الوهم الأخير

في الساعة السادسة من صباح يوم الرابع من شهر يونيو غادرت الفندق، مازالت القدس في خيالي، ما زالت هي حلمي، بدأت أمضى نحو الشمال، مررت بجبل، وأخذنا الطريق المؤدي إلى دمشق متوجهين ناحية الشمال، أخذت عربة حنطور يجرها الخيل وصلنا إلى قرية بيريتة التي يسمونها الآن "إليه بليخ"، وجدنا كشكًا يقدم الشاي فاسترحنا قليلاً، هذه المنطقة تعد من ضواحي القدس، فهي تبعد عنها ثلاثة أميال، وهذا هو المكان الذي يغادر منه من زاروا المدينة لأخر مرة، فهذا هو مكان الوداع، ومن هذا المكان يمكن لمن يزور المدينة لأول مرة أن يلقى عليها من هنا أول نظرة. في الأيام الغابرة كان من يأتون من الجليل إلى القدس ويمررون من هنا، كانوا يغفون وينشدون بعض الأغانى الخاصة.

حين تطلعت ورأى شاهدت ت眸جات الجبال والهضاب، شاهدت جبل الزيتون وشاهدت الكنيسة الروسية، ومن خلال الهضاب تمكنت من أن أشاهد القدس جميلة جداً، كأنها صورة رسمها أعظم فنان، بدت كأنها وهم، كأنها خيال. آه، يا أورشليم! وداعاً أيتها القدس!

行程ニチスレバ



خريطة السفر داخل فلسطين (بقلم المؤلف)

ثلاثة أيام على ظهر الفرس

من القدس إلى الناصرة

في الرابع من يونيو غادرت القدس إلى الناصرة عبر السامرة، هذا يعني أنني حين أتحرك لأصل إلى الناصرة كأنني كنت أقرأ الأنجليل الأربعة من آخرها إلى أولها.

ودعت القدس الوداع الأخير عند عين كارم، كان الجواد يمضى متوجهًا باستمرار ناحية الشمال، كان يرافقنى مرشد يدعى فيليب جورج، يبلغ من العمر الثامنة والثلاثين أو التاسعة والثلاثين، وهو شامي مسيحي، كان الطريق الذى يمضى عليه الجواد قد تم تعبئته منذ ثمان سنوات حين قدم الإمبراطور الألماني هنا، ومنذ ذلك التاريخ والأنشطة الألمانية في فلسطين في تزايد مستمر، فهناك فنادق كثيرة هنا يديرها الألمان.

كنا نمر على مكان فيه بقايا أطلال قديمة، ويقال هنا نصب إبراهيم خيمته ذات يوم. كان الطريق مثل الأخدود؛ فهو يمضى بين جبلين عن اليمين وعن الشمال. شاهدت آثاراً قديمة وأطلالاً يرجع تاريخها إلى عهد السيد المسيح... جبال وصخور، لا حضرة ولا أشجار ولا حقول، ونادراً جداً ما شاهدت مساحات مزروعة بالعنب، حين توقفنا عند استراحة صغيرة وجدتهم يبيعون التوت الأبيض والأحمر، سمعت أنه بالقرب من دمشق توجد حدائق أشجار التوت لإنتاج الحرير من ذودة القز. مررنا بوادٍ منخفض عميق، وينابيع ماء عذبة، وفي ظل بعض

الصخور توقفنا للراحة، قادوا الجياد إلى ينبع ماء حتى تروي ظمائها، في تلك الأثناء شاهدت رجلاً يمتطي حماراً ويقود خلفه خمسة عشر بعيراً تحمل الأمتعة، دققت قليلاً فوجدتها فاكهة متنوعة كالمشمش وغيره، وحين وصلنا بالقرب من حدود السامرة، شاهدنا رجلاً يرقد تحت شجرة زيتون، فحاول فليبي أن يتحدث معه، لكن الرجل كان مستغرقاً في نوم عميق ولم يستيقظ، وهذا الرجل كان من واجبه أن يرافقنا من عند هذه النقطة حتى الناصرة، وهو أحد الخيالة ويدعى إبراهيم، وهو من الشام أيضاً. مضينا على الطريق إلى أعلى قمة المنحدر، ومنها يمكن أن يشاهد المرء جبل هيرمون^(١) ولكننا اليوم وبسبب الضباب الكثيف لم نتمكن من مشاهدة الجبل، وكنا قد ابتعدنا عن القدس مسافة ثمانية أميال.

ما زلنا على ظهر العربية، والجواد يمضى عبر منحدر الطريق، حيث شاهدنا بقایا فندق بجوار بئر التف حوله جمع غفير، شاهدت زوجين يهوديين قادمين من الناصرة في طريقهم إلى القدس، وشاهدت حداة الإبل ورعاة الفنم، كان عدد كبير من الناس قد ألقوا برحالهم في هذا المكان طلباً للراحة. وقد أخذت أنا بدوري قسطاً من الراحة تحت ظلال أشجار الزيتون، وبعد ذلك أخذت جواداً أبيض بينما أخذ فليب جواداً بنريا واختار إبراهيم جواداً أسود، طلبت منهم أن يعطوني جواداً لطيفاً هادئاً، فكان لي ما أردت، وبالفعل كان جوادي الأبيض جواداً لطيفاً هادئاً، لكنه كان بطيفاً جداً، وكثيراً ما كان يريد أن يتوقف عن السير، مما جعل إبراهيم يضرره من الخلف، فيندفع الجواد فجأة، وكدت أسقط من فوق ظهره أكثر من مرة، وكان علىَّ أن أقبض علىَّ رقبة الجواد بشدة.

نهار يونية في فلسطين شديد الحرارة، كان علينا أن نصعد ونبطط الهضاب الصخرية، مما جعلنيأشعر بالإرهاق الشديد، شعرت حقاً بمشقة السفر في العصور القديمة، وسألت نفسي: هل كانوا يسيرون هنا بالخف أو الصندل أو ما شابه ذلك؟ لا بد أن الأمر كان شاقاً جداً، وضفت "فوطة" على رأسِ اتقاء

(١) يقع جبل هيرمون أو جبل الشيخ على الطريق الموصولة إلى دمشق، وهو يمتد لتكون هضبة الجولان قمته في الشمال، وإسرائيل تحتل سفوح الجبل إلى الآن (وقت ترجمة هذا الكتاب ونشره)، ومنذ ٤ سنة، وتستخدمها في السياحة والتزلج. (المترجم)

لحرارة الشمس الشديدة، وفرشت بطانية فوق الججاد، واستمر سفرينا على هذه الدروب الوعرة... شاهدنا الأزهار بين شقوق الصخور، حيث كنا نمضى بين ممرات صخرية حتى وصلنا إلى واد يمتد من الجنوب إلى الشمال، وشاهدنا حقول القمح التي كانت أشبه بنهر كوجا، النهر الأصفر في الصين، ووصلنا إلى حدود السامرة.

بئر يعقوب

استمر سفرينا عبر حقول القمح، وحين كانت الشمس على وشك الغيب شاهدنا هضبة عالية يبلغ ارتفاعها نحو ٢٠٠ مترا^(٢) وهناك شاهدنا مبني في أعلى الهضبة (التي هي في الأصل جبل جرزيم)^(٣). في يوم من الأيام كان السامريون يعبدون الله هنا في هذا المبنى الواقع أعلى الهضبة، والآن يتبعده هنا المسلمون، هكذا أخبرني المرشد^(٤).

يتفرع طريق الوادي هنا إلى ثلاثة طرق في اتجاهات مختلفة، أخذنا الطريق الأيمن حتى يمكن أن نشاهد بئر يعقوب، وبعد أن مضينا على هذا الطريق بقليل شاهدنا مساحة واسعة مملوقة بأشجار المشمش، هنا بقايا معبد هو الآن كنيسة صغيرة لليونانيين، وفي وسط هذه الكنيسة يوجد بئر يعقوب. كان مرشدنا راهبا روسيا عجوزا في داخل الكنيسة، نزلنا من خلال درج حجري إلى غرفة سقفها منخفض جدا، ووسط هذه الحجرة شاهدنا البئر، دائرة قطرها نحو مترا تقربيا أو أقل، أضانا شمعة لشاهد قاع البئر، كانت البئر أوسع قليلا ناحية القاع، كان العمق نحو مترين ونصف، ولم يكن فيه ماء... فقط الحجارة! يا للأسف! هكذا جف ماء البئر منذ مدة طويلة.

(٢) ورد في الأصل ١٠٠٠ شاكو، ولشاكي يساوي ٢٠٠ كم. (المترجم)

(٣) يشير إلى الجبل الذي يطلق عليه جبل الطور جنوب مدينة نابلس في فلسطين، ويرتفع ٨٨١ مترا عن سطح البحر، وتسكن على قمته الطائفة السامرية التي آمنت بانبى موسى واتخذت التوراة كتابا مقدسا (أي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم)، ويعتبر جبل جرزيم قبلتهم أثناء الصلاة. (المترجم)

(٤) يقصد أن المسلمين بنوا مساجدهم هنا أيضا. (المترجم)

شاهدت صورة بجانب البئر، صورة لامرأة من الطائفة السامرية، فطريق السامرية القديم كان يمر من هنا، من هذه النقطة، ولا شك أن هذه البئر هي بئر يعقوب.

خرجنا من حجرة البئر وجلسنا في حديقة الكنيسة، كان يمكن أن أشاهد القرية التي يطلق عليها الناس "عسكر"^(٥). أخرجت الإنجيل من جيبى، وبدأت أطالع إنجيل يوحنا الإصلاح الرابع ، بينما كان يمكن أن أشاهد جبل جرزيم:

"كان لا بد له أن يجتاز السامرية فأتى إلى مدينة من السامرية يقال لها سوخار بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه، وكانت هناك بئر يعقوب، فإذا كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيحاً الذي يقال له المسيح يأتي، فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء. قال لها يسوع: أنا الذي أكلمك هو. وعند ذلك جاء تلاميذه، وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة ولكن لم يقل أحد: "ماذا تطلب؟" أو "لماذا تتكلم معها؟" فترك المراة جرتها ومضت إلى المدينة، وقالت للناس: هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت. أعلل هذا هو المسيح؟ فخرجوا من المدينة وأتوا إليه"^(٦).

تغير لون الحقول، فهذا هو وقت الحصاد، من ناحية الشرق وإلى قمة الجبل كنت أشاهد حقول القمح الذي حان حصاده، كانت سيقان القمح تحت أشعة الشمس وقت المغيب، وهي تتحنى لنسمات الهواء العليل في نوبات منتظمة تشكل بحراً يموج بألوان ذهبية خلابة. آه! ماذا تعنى السنوات التي مضت منذ ذلك الوقت؟ منذ ألفى عام مازال المسيح يجلس هنا.. عند بئر يعقوب وهو يعلمنا:... من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية^(٧)، شakra للرب!

(٥) من القرى التاريخية، ويوجد بمدخلها آثار لأعمدة رومانية، وتشتهر بعين ماء لا تزال قائمة حتى الآن، تتميز ببرودتها صيفاً ودفئها شتاء. (المترجم).

(٦) انظر الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصلاح ٤ : ٤ - ٢٠ ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ط ٤، ٢٠٠٩، ص ٨٢. (المترجم)

(٧) إشارة إلى ما ورد في إنجيل يوحنا: ١٣ - ١٤ . (المترجم)

غادرنا بئر يعقوب، كان هناك قبر يوسف لكننا لم نشاهد، مضينا في سفرينا هذا حتى وصلنا وادي نابلس، كنا نمضى بين هضبتي جبل جرزيم حيث كنت أشاهد عن جانب آثار مبان قديمة بينما على الجانب الآخر كنت أشاهد أشجاراً قيل إنهم يجمعون ثمارها ويقشرونها ويمضغونها. عند وصولنا إلى نابلس أقمنا في فندق اللاتين الكاثوليكي، وفيما يتعلق بالسكن إذا ما كانا نحمل خطاب توصية يمكن أن نقيم في أي مكان. توجد في هذا الفندق غرف قليلة للإقامة، وتوجد غرف لتناول الطعام، والإقامة بالمجان إلا أن الضيف يقدم هبة رمزية عند المغادرة.

المسافة من القدس إلى نابلس نحو اثنتي عشر كيلو متراً، وقد ورد اسم نابلس في الكتاب المقدس العهد القديم هكذا "شكيم"^(٨)، يبلغ عدد سكانها الآن (١٩٠٦م) نحو ٢٠ ألف نسمة، وهناك كثير من الأجانب يقطنونها، وتحتل هذه المدينة المرتبة الثانية بعد القدس.

كنت قد قضيت نصف يوم تقريباً على ظهر الجواد، لهذا أشعر بالتعب الشديد في ظهري وساقي، بل أشعر بالألم أيضاً، لذا لا أريد أن أشاهد أي شيء، كل ما أريده حقاً هو أن أخلد للراحة، لكنني طول الليل لم أستطع مقاومة التعب الجسدي فضلاً عما أصابني من لسع حشرة "البق"؛ وفي النهار كنت قد شاهدت صورة مرسوماً فيها سيف يضرب قلب ماريا، ظل هذا المنظر في مخيلتي ولم أتمكن من نسيانه أو إزاحته من ذاكرتي، مما أقلق مضجعى ومنعني من النوم.

بعد السامرة، أطلال السامرة

في يوم الخامس من الشهر ركبت الجواد بعد شروق الشمس، وعندئذ نسيت آلام الليلة الماضية، لا أدرى لماذا أو كيف حدث هذا؟ الطعام في السامرة أشهى

(٨) تعرف أيضاً باسم جبل النار ودمشق الصفرى، وفي العهد الرومانى كانت تعرف باسم فلافيا نيبوليس Falvia Neapolis، وشكيم تمنى المكان المرتفع، وهي تقع عند أقدام جبل جرزيم.
(المترجم)

وألاذ من الطعام في يهودا، ففي وادي نابلس تُروى المحاصيل بالماء العذب النظيف الذي تناول منه أشجار الزيتون وأشجار التين والمشمش والتوت والتفاح والعنب وغيرها من الخضروات نصيتها من الرواء فضلاً عن خصوبية التربة، كل هذا جعل الأشجار مورقة خضراء زاهية، سمعت نقيق الضفادع بالقرب من جدول صغير... بعد نابلس اتجهنا شمالاً، وبعد ساعتين وصلنا إلى "سبسطية" التي كانت قديماً عاصمة مملكة إسرائيل، كان الرومان قد بنوا المدينة على هضبة عند ملتقى أقدام جبل جرزيم في القسم الشرقي^(١).

شاهدنا هضبة بارتفاع نحو ٩٠ متراً^(٢) وهناك زراعات على مصاطب متدرجة، وانتشرت هناك أيضاً أشجار الزيتون.أخذنا دورة حول الهضبة حيث توجد أطلال مدينة هيروديس التي بناها الرومان، يوجد عمود من الرخام بطول ثلاثة أمتار ونصف المتر، وهناك أطلال مسرح مفتوح، وأطلال معابد كثيرة بين أشجار الزيتون، ومن أسفل، في المكان المنخفض يوجد ضريح يوحنا المعمدان وضريح إليشا وضريح عوبيديا، ويقدم أهل القرية أحياناً بعض العملات المعدنية نذروا لهذه الأضرحة، ومن قمة هذه الهضبة ومن الناحية الغربية شاهدت مياه البحر الأبيض المتوسط الزرقاء!

بهجة السفر ومنتعبته

وصلنا عند قرية يقال لها "شيريه"، حيث قاد كل منا جواهه إلى ظل أشجار الزيتون، وفرشنا "بطانية" على الأرض، وبدأنا نتناول طعام الغداء قبل الموعد المعتمد بقليل، تناولنا الحليب والخبز والمربى، ثم أخذنا قسطاً من الراحة. تجنبت أكل المشمش، لأنني حين تناولت بعض حبات المشمش في القدس أصابني مغص شديد في معدتي، شاهدت نبع ماء ورددته بعض النساء اللواتي ملأن جرارهن، ووضعنها على رءوسهن، وانطلقن عائدات من حيث جئن، بينما كانت آخريات

(١) يشير المؤلف هنا إلى السامرية التي كانت عاصمة مملكة إسرائيل الشمالية، وتقع أطلال المدينة قرب قرية سبسطية على بعد ١٢ كيلو متراً شمال غرب نابلس. (المترجم)

(٢) في الأصل ٣٠٠ شاكو، والشاكو يساوي ٢٠ سم. (المترجم)

يفصلن الملابس، كانت بشرتها جميعا تميل إلى الحمرة القاتمة، وكن حافيات الأقدام، وكان بعض النسوة يعلقون عقودا ويضعن أساور، وكان شعرهن مزينا بنقود معدنية من الفضة تتدلى من أعلى الرأس على الجبهة أو الجانبين، وبعضهن وضعن العملات الذهبية بدلا من الفضية لكن هذا كان نادرا. حين سافرت إلى سوريا وجدت بعض العملات الفضية (المخرومة): فربما تستخدم النساء هذه العملات للزينة، بعد أن استرخنا وأخذنا "تعسيلة" قصيرة، ركبنا ظهور الخيل ومضينا، وفي المساء أصابنا الملل. وضع فيليب منديلا أبيض فوق طريوشة التركي، بينما ثبت إبراهيم طريوشة بشكل معوج مثير للانتباه، واضعا ساقيه فوق الأمتعة، معرضا وجهه لأشعة الشمس، بعدها بدأ كلامها في الغناء: ياما ياما وياما ياما ياما... لم أكن أفهم شيئا على الإطلاق، فبدأت أغنى وأشد شيئا من "ترانيم الكتاب المقدس".

بعد ذلك وصلنا إلى هضبة غير عالية، حيث توجد قرية صغيرة تكثر فيها أشجار التين والعنب والرمان يسمونها دوتان، وكما ورد في العهد القديم فقد بيع يوسف حين جاء هنا بأمر من أبيه لرؤيه إخوته، فألقى في البئر ثم بيع بجوار هذا المكان حيث توجد بئر قطرها نحو مترين يسمونها "بئر القافلة؟" ومنذ وقت قديم اشتهرت دوتان ب التربية الخراف بسبب وجود هذه البئر، إذ يسهل تربيتها هنا. شاهدت البئر المملوءة بالماء، وشاهدت اثنين من البدو، كانوا من جماعة الرهبان، بدأ في الغطس في البئر حتى الرقبة وهو يمسكان بحبل متين مثبت عند صخرة على حافة البئر... تعجبت هل هو عميق؟!

يشكل ماء البئر جدولًا صغيرا يمضى إلى الحقول التي تزرع بالخيار، شاهدت حسانا وضع حوافره عند حافة البئر ومد رقبته وبدأ يشرب من الماء بهدوء غريب، يبدو أنه كان سعيدا!

الماء... إنه الماء الحقيقي، الماء العذب، كانت هذه أول مرة خلال سفري هذا أتدوقي فيها طعم الماء الجارى العذب؟ كنت أمضى عبر الهواء الجاف والجبار الصخرية التي تضربيها أشعة الشمس وبيوت الطين، فقد كان كل ما شاهدته من قبل جافا وكالحا، حتى مشاعرى أنا نفسى صارت متداخلة غير واضحة، ثم

أخيراً وجدت هذه البئر... نبع ماء جارٍ، ماء حقيقى يجرى من بين الصخور باستمراً دون توقف ، لا يمكن أن أجد الكلمات التي أصف بها هذا الماء، الماء الحقيقى والخضرة، هذا الماء الذى جعل حلقى يرتوى بعذوبته، تلك الخضرة التي جعلت عيني تكتحل بجذتها وجمالها، وأنشت روحى من داخلى... الماء!

حيث يكون الماء يكون البشر، وتكون الحياة، ويتشكل التجمع البشري، يوحنا ذات مرة كان يحلم بالماء، ماء نهر الحياة، وأيضاً النبي محمد نشاً في بيئه يسودها الجفاف، لهذا كانت صورة الجنة التي وردت في آيات القرآن الكريم مملوقة بالجدائل والأنهار والماء العذب والفاكهه المثمرة، وكله بفضل الماء، لا شك أن الله سيكافئ من يزرع الثمار بالماء والحليب.

مساء عينون

من "دوتان" تحركنا إلى "كاباتشيا" حيث توجد غابة الزيتون التي تعد أكبر مزارع الزيتون في فلسطين، وكلها أشجار عتيقة، لا أدرى كم ألف سنة مرّت عليها، يجمع محصول الزيتون في سبتمبر، وهم هنا يأكلون الزيتون بعد أن يملحوه، ويستخرجون منه الزيت، ومن زيته يصنعون الصابون أيضاً، سوف ننزل إلى أسفل الوادي عند غروب الشمس لنصل إلى عينون^(١١).

وصلنا البلدة ونزلنا في فندق يديره رجل ألماني، أمضينا اليوم كله مسافرين عبر جبال السامرية، قطعنا طريقاً بطول ٢٨ كيلو متراً^(١٢)، وببلدة عينون كان يطلق عليها قدماً "عين غانم"^(١٣) وهي تعلو عن سطح البحر بنحو ٦٥٠ قدماً، وهي بلدة صغيرة يبلغ عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة، وتقع على حدود جبال السامرية ومرتفعات

(١١) تكتب أيضاً عين نون، وهو اسم آرامي بمعنى عيون ، وهي بلدة تجمع عدداً من الينابيع ، وكان يوحنا يمدد هنا بكثرة لتوافر المياه (يوحنا ٢: ٢٢) ولم يتم تحديد المكان، ويقال إنها تبعد عن القدس شمالياً بنحو ستة أميال (انظر قاموس الكتاب المقدس) وهناك بلدة في شمال غرب جنين يطلق عليها عينين تبعد مسافة تقدر بنحو ١٦ كيلو متراً. (المترجم)

(١٢) ورد في الأصل سبعة رياض، والرى قياس طولى يابانى قديم يساوى أربعة كيلو مترات، ولا يستخدم هذه الأيام. (المترجم)

(١٣) يبدو أن هذا الاسم كان نسبة إلى أكبر عين بالبلدة. (المترجم)

الجليل، كان يمكننى أن أشاهد من نافذة غرفتى بالفندق الجبال البعيدة والناصرة، فى المساء تحولت السماء التى يزينها كوكب الزهرة، تحولت فى الليل إلى سماء يضيء القمر الفضى صفحتها.

تحت الفندق تتبع عين ماء عذب يجري طول الوقت دون توقف، فيشكل نهيرا يرد عليه البشر والأنعام على السواء، النساء يحملن جرارهن، والرعاة يأتون بقطعان ماشيتهم، الأغنام والحمير والبقر والبعير كلها تمد رقبابها إلى حيث يجري الماء، فتروى ظمأها تحت ضوء القمر الفضى... آه الماء! ثم الماء! أصل الحياة.

مرتفعات الناصرة

في السادس من يونيو سُنصل إلى الناصرة، ركينا الجياد في الساعة السادسة صباحاً، اعتدت الآن على ركوب الجواد، وصار الأمر بالنسبة لى سهلاً، قدمنا من القدس، ومضينا عبر السامرية ووصلنا إلى بلدة عينون بعد أن مضينا في دروب صاعدين مرة وهابطين مرة أخرى عبر الوادي، ومن عينون نمضى عبر الجليل وعبر مرتفعات وهضاب وحقول فلسطين.

بعد أن غادرنا عينون بنصف ساعة شاهدنا قرية، بدت لنا من بعيد فوق الجبال، وقد غالب عليها اللون الأبيض، سألت مرافقي عن اسمها فقال: هذه هي بلدة الناصرة!

حين نطق باسم دق قلبي وانتشى مثل عصفور صغير... آه الناصرة! هذه هي الناصرة! (١٤).

حين رجع المسيح من اليهودية مع حواريه أقام في الناصرة، شعر بأنه في موطنه... آه إنها الناصرة، الناصرة قريبة مني الآن، وأنا على مقرية منها، لكن

(١٤) في الناصرة حسب الإنجيل، بشر الملائكة جبرائيل مريم العذراء بولادة يسوع المسيح، وقد نشأ السيد المسيح فيها وعاش غالبية حياته، ودُعي يسوع الناصري، وانتسب أتباعه إليها فُقيل "الناصاري". (المترجم)

مرافقى نبهنى قائلاً: إنها تبدو قريبة لكنها فى الواقع تبعد عن هنا نحو ١٨ أو ١٩ ميلاً، هذا الميدان الواسع يحيط بالجبل من أسفله بينما فى الشمال يوجد جبل الجليل، ومن الجنوب جبل السامر، ومن الشرق جبل حرمون (جبل الشيخ) ومن الغرب جبل الكرمل، فهذا المكان مثل قاع فتجان، محاط بالارتفاعات من كل مكان، من الجنوب للشمال حوالى ٢٨ كيلومتراً^(١٥) ومن الشرق والغرب نحو ٤٨ كيلو متراً^(١٦) وينخفض عن سطح البحر الأبيض المتوسط بنحو ٢٥٠ قدماً، فهو مكان يبدو كما لو كان بحيرة جفت مياها، والمساحة كلها حقول قمح، يتموج فيها اللون الذهبى. لأول مرة أشاهد تربة زراعية حقيقية فى فلسطين، حيث لا تستخدم أسمدة، ورغم هذا فالقمح ينمو قوياً وبشراً بمحصول جيد، سمعت أنه فى فصل الربيع تنمو هنا أنواع كثيرة من الأزهار البرية، ويمكننى الآن أن أشاهد أنواعاً مختلفة من الزهور، منها زهرة الخطمس وزهرة ديزى البرية وأزهار نبات الذرة والجزر.

كانت هذه الحقول فى يوم من الأيام ميداناً للمعركة التى انهزم فيها الصليبيون على يد السلطان صلاح الدين ...

من أطلال إلى أطلال

حين أرسلت الشمس أشعتها تتلألأ فوق قطرات الندى كنا قد وصلنا عند جبل جلبيو حيث دارت معارك بين شاول ولد بهوناثان والفلسطينيين وسقط الإسرائييليون قتلى عند جبل جلبيو^(١٧)، وشد الفلسطينيون وراء شاول ووراء بنيه وانتصر الفلسطينيون^(١٨). ثم جاء كل رجال إسرائيل إلى داود ليكون رئيساً لهم...
كنت أنصت إلى داود يتترن:

(١٥) فى الأصل سبعة رياض، والرى يساوى ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(١٦) فى الأصل ١٢ رياضاً. (المترجم)

(١٧) ورد ذكرها فى أخبار الأيام الأول: ٩، انظر الكتاب المقدس، ص ٣٢٨، الطبعة المشار إليها سابقاً.
(المترجم)

(١٨) انظر التفاصيل فى أخبار الأيام الأول ١٠، ص ٣٢٩، المصدر السابق. (المترجم)

جبل جلبيوع! أتمنى أن تهطل الأمطار على كل بقعة فيك

هذه الحدائق وهذه الحقول هبة من الله لك

فهناك أيضا أجساد الجنود الشجاعان ترقد هنا بين جنباتك

يقول الناس إن هذا الجبل كان مملوءاً بالأشجار، لكن اليوم لا خضراء ولا أشجار، فقط جبل أصلع! يعلو فوق سطح البحر بنحو ٤٨٠ متراً^(١٩)، وبعد هذا الجبل وصلنا إلى وادٍ مستو. انطلقنا من حيث المكان الذي وقعت فيه الحرب بين جدعوت والميديانيين^(٢٠) في طريقنا عند جبل جلبيوع وحرمون حتى وصلنا إلى وادي الأردن.

في الناحية الشمالية لجبل جلبيوع توجد أطلال عين ماء ورد ذكرها في الصراع الذي دار بين جدعون والميديانيين، أشار مرافقي إلى مكان قائلًا هنا خط سكة حديد يمتد من دمشق إلى حيفا، ويمر من الشرق إلى الغرب. على كل حال وصلنا إلى حرمون، ويطلق على هذا المكان في العهد القديم مسمى "موريه" شاهدنا مكان المعركة التي دارت بين شاؤل والفلسطينيين، وشاهدنا المكان الذي أحيا فيه يسوع المسيح لامرأة ولدها الوحيد^(٢١) والمكان اليوم موحش يضم نحو عشرة بيوت ريفية فقيرة، لكن لا مراة هناك ثلث أشجار تبن ضخمة جداً، قمنا بفرش بطانية تحت إحدى هذه الأشجار، وأخذنا قسطاً من النوم في القيلولة بعد أن تناولنا طعام الغداء، قضينا هنا نحو أربع ساعات، شاهدت الطيور تأتي لتلتقط ثمار التين، وحتى أطفال القرية كانوا يأتون ليسقطوا ثمار التين، ثم يلتقطوه ويأكلوه على الفور في جو من المرح والفرح.

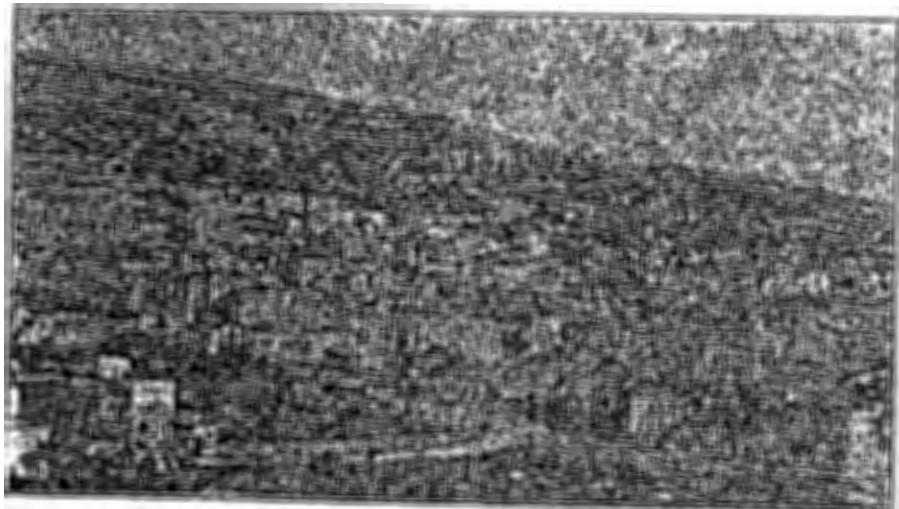
(١٩) في الأصل ١٦٠٠ شاكو. (المترجم)

(٢٠) انظر قضاء ٦ : ١١ وأيضاً ٧ : ٢٤، أرسل جدعون رسلاً إلى كل جيل آخر أيام قائلًا: انزلوا للقاء الميديانيين وخذلوا منهم المياه إلى بيت باره والأردن... إلخ. (المترجم)

(٢١) يشير المؤلف إلى إحياء ابن أرملة بلدة نابين. انظر إنجليل لوفا، الإصلاح السابع ١١ ، ص ٥٧، الطبعة المشار إليها من قبل، وقراءة توضيحية في الإنجيل ص ٨٨. (المترجم)

إلى الناصرة

في الساعة الثانية بعد الظهر تركنا ظل شجرة التين متوجهين إلى الناصرة، مضينا عبر مرتفع في الطريق إلى قرية تدعى تابين، اسمها مكتوب في الكتاب المقدس - العهد القديم ، شاهدت أطلالا ربما هي أطلال تلك القرية التي ورد ذكرها في العهد القديم. حين شاهدت كوخ فلاح وسط الحقول شعرت بأنني أرى مشهدا من الكتاب المقدس... وأخيرا وصلنا عند أقدام جبال الناصرة، كان الطريق مملوءا بالحجارة والحصى، شاهدنا المبنى الأبيض الذي يقيم فيه الحاج القادمون إلى الناصرة، ورأينا مبانٍ أخرى عالية، وأخرى منخفضة، وشاهدت أنواعا مختلفة من الأشجار، منها أشجار السرو والتين وأشجار النخيل بمنظرها الرائع الخلاب، يبلغ عدد السكان المحليين مع الأجانب نحو عشرة آلاف نسمة.



الناصرة آنذاك

فجأة ودون سابق إنذار طلع علينا القمر بدرا منيرا على جبال الناصرة، حين أحسب الأيام التي مرت منذ كنت في المحيط الهندي أجدها شهرا بال تماماً والكمال، اليوم أشاهد القمر بدرا، مثلاً شاهدته منذ شهر، بينما كانت السفينة تمخر عباب المحيط الهندي، بدا ضوء القمر خافتًا، لكنه في مدة قصيرة صار لاماً وسط سماء ليل الناصرة، فأضاء البلدة، يا له من مشهد رائع لا يمكننى التعبير عنه بالكلمات، شاهدت في ضوء القمر ظل امرأة تخرج من أحد البيوت، بدت لى كأنها ماريًا، تُرى أين الأخ يعقوب؟!

آه يا ناصرة.. آه يا قمر الناصرة!

جئت هنا، جئت إلى جبال الناصرة حيث تقيم

شاهدت القمر الموجود في سماء الناصرة منذ أن كنت هنا

شاهدته الليلة مرة، فشعرت بأنني أراك^(٢٢).

مكان تربية الأنبياء الصالحين

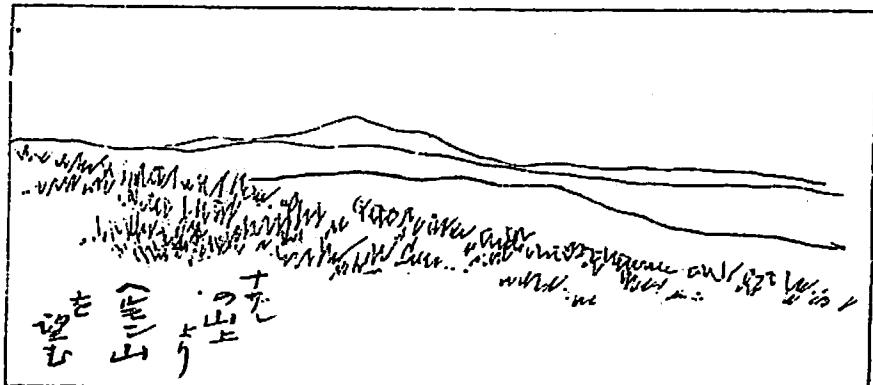
اليوم هو اليوم السابع من الشهر وسوف يعود الخيال إبراهيم أدراجه إلى الجنوب، في الصباح الباكر طلبت من فيليب أن نصعد قمة الجبل الذي يعلو سطح البحر بنحو خمسين مترا^(٢٣) أخذنا نتسلق المرتفعات إلى أن وصلنا إلى القمة. حين أتطلع من هذا المكان ناحية الجنوب يمكنني أن أشاهد الطريق الذي مضينا عليه بالأمس، ويمكنني أيضاً أن أشاهد جبال السامرة، وتحت هذه الجبال يمكنني مشاهدة قرية عينون التي أقمنا بها، وبدت القدس لنا على مرمى البصر، وفي الناحية الغربية كنت أشاهد جبل الكرمل، وعند الجزء الشمالي من هذا الجبل كنت ألح مياه البحر الأبيض المتوسط الزرقاء، ومن الناحية الشرقية كنت أشاهد الجليل وجبل طبرية ومن بعدها جبال الأردن، ومن الشمال كان يمكنني أن أشاهد جبل حرمون الذي يرتفع عن سطح البحر بنحو ثلاثة متر^(٢٤) كان لونه أخضر فاتحاً وعلى قمته توجد ثلوج لا تذوب طوال السنة^(٢٥).

(٢٢) يشير هنا إلى السيد المسيح. (المترجم)

(٢٣) في الأصل ١٥٠٠ شاكو، والشاكو يساوي ٢٠ سم. (المترجم)

(٢٤) في الأصل ٩٠٠ شاكو. (المترجم)

(٢٥) يطلق عليه أيضاً جبل الشيخ، وكان له اسم آخر عند العبرانيين هو سينيون (ثنانية ٤ : ٤) ويقال إن تجلى رب يسوع حدث فوقه، وقد ورد ذكره في ملحمة جلجامش السومرية، وتربت هذه الأيام زيارات لقمة الجبل للصلوة وإضاءة الشموع في مناسبة يوم الرب "عيد التجلى" في السادس من آب أو أغسطس. (المترجم)



يمكنك أن تشاهد جبل حرمون عبر جبل الناصرة (صورة رسم يدوى بقلم المزلف).

تذكرة الرجل الذى كان يرتدى ملابس بيضاء بلون الثلج، شاهد هذا الثلج فقال: ماذا يأتي من الناصرة؟ كانت الناصرة خلفية العهد القديم... ماذا تقول هذه الجبال لي؟ قمة الجبل تقترب من السماء، تطاولها الناصرة دون شك هى أفضل مكان ل التربية الأتقياء الصالحين ، ل التربية أهل الله الطيبين!

رغم أن موسم تفتح الأزهار البرية قد انتهى فإن قمة الجبل لا تزال تحتفظ بالكثير من أنواع الأزهار التي ما زالت تغطيها قطرات الندى، وهناك الكثير من الحشرات الصغيرة يمكن أن نشاهدها وهى تتحرك وتقفز هنا وهناك... منظر غير معتاد على الإطلاق، يا له من مشهد! لا يمكننى أن أرسمه بالكلمات!

أطلال الناصرة القديمة

بعد أن نزلنا من فوق الجبل شاهدت كنيسة اليونانيين، فى داخل الكنيسة وعند المكان الذى يعظ فيه راعى الكنيسة شاهدت فتحة علقو فيها وعاء من النحاس، يجري إلية ماء نبع من الجبل الخلفى، ومن ثم يجرى الماء من الوعاء إلى خارج الكنيسة ليشكل بئر مريم، وهى بئر مبطنة بالأحجار، ومملوءة بالماء طول الوقت، وقد اعتاد السيد المسيح على أن يشرب من هذه البئر، وأن يصلى حولها.

بعد ذلك شاهدت كنيسة الطائفة اللاتينية، يقولون إنها أطلال بيت مريم، والكنيسة مزخرفة بالشموع والمسامير وبالصور المرسومة بحيث يبدو كل شيء

براقاً ولامعاً، نزلنا أسفل الدرج وشاهدنا عمودين حجريين، أحدهما المكان الذي وقف عنده الملائكة جبريل والثانية المكان الذي وقفت عنده مريم، ومكتوب "هنا كان الجسد" وهناك كهف صغير يسمونه "مطبع مريم" وشاهدت مكاناً ظننته مدحنة إلا أنهم قالوا إنها ماسورة تحمل الماء من الخارج.

وهناك مكان يبعد عن الكنيسة قليلاً، يطلقون عليه "ورشة يوسف"، وقد شيدوا مبنياً ووضعوا صورة يوسف النجار وببيده منشار، ومريم تجلس تتسلج على النول، وهناك صورة لفتاة في الثانية عشرة من عمرها تقريباً تصنع صليب المسيح، لا يوجد غير هذه الصور.

قرأت رسالة إشعيا (٢٦) :

"روح الله موجود فيَّ، ما كتب قبلًا هو أمامي الآن".

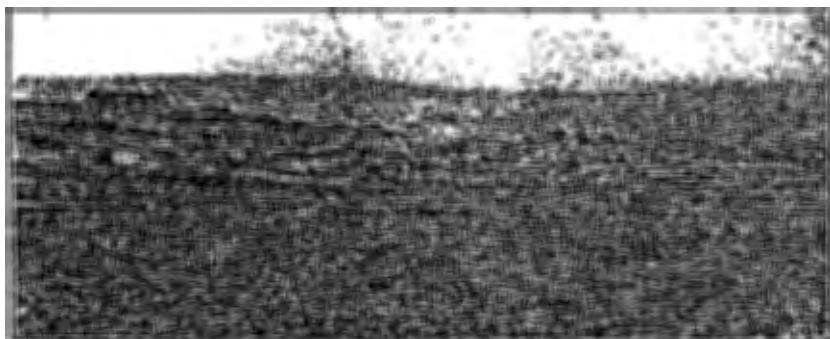
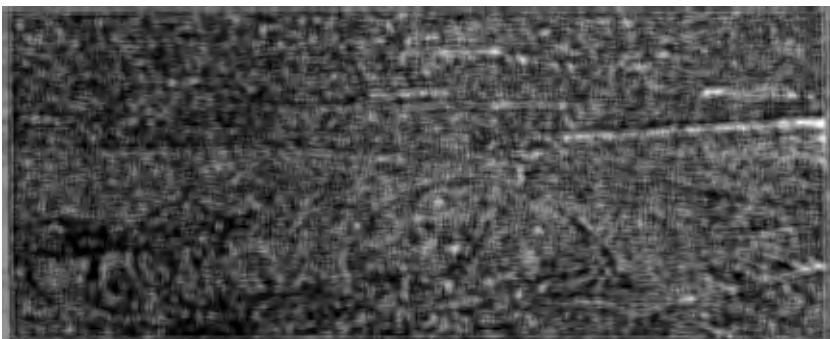
أطلال الكنيسة الآن ملك للطائفة اليونانية، وهناك صراع يمتد لسنوات بين الطوائف هنا، مما جعل ملكية أطلال الكنيسة تتحول من طائفة إلى أخرى لأكثر من مرة.

لقد سموه ابن يوسف وابن مريم، لقد قضى هنا سنوات، مر عليه برد الشتاء وتلجه، وانبعاث ينابيع الصيف وحره، وفتح أزهار الربيع، والقمر الذي يطلع على الجبال، قضى هنا بين مرتفعات الناصرة ثلاثين عاماً من عمره ... أسترجع الآن تلك السنوات التي مضت، أود أن أعرف ماذا شاهدت خلالها؟ وبماذا شعرت؟ وماذا تعلمت؟ ومع من تكلمت؟ وكيف ضحكت؟ وكيف تعاملت مع أطفال أهالي الناصرة؟ وكيف عشت طفلاً وأخاً ورب أسرة؟ وماذا صنعت بعد موت الآب؟ وفيه فكرت؟ وبماذا اعتقدت؟ وكيف كانت تقضي الأيام؟ في خاطرها تساؤلات لا نهاية لها، فهذا المكان ما هو إلا صخور وهضاب، وخياري الآن مملوء بالتاريخ، وعيق التاريخ يتسلل إلى داخل ذاكرتي، وتحت تربة الناصرة بذور لا يعلم نبتتها إلا الله، والناس الذين قدموا للحج هنا، إلى هذا المكان، يحملون بداخلهم حب استطلاع كبيراً، يبحثون هنا وهناك في مدينة الناصرة عن ورش النجارين! مع أنه لا يوجد هنا أى نجار، لا يوجد سوى طفلة بريئة أشاهد ظلها خارجة من باب الدار!

(٢٦) إشعيا معناه خلاص الرب، وهو صاحب سفر إشعيا في المهد القديم من الكتاب المقدس، ورد في إنجيل لوقا : قلما قدم إليه كتاب النبي إشعيا، فلما فتحه وجد المكان الذي كتب فيه روح الرب على لائحة مسحني لأبشر القراء ... انظر إنجيل لوقا ٤: ١٨ من ٢٨ - ٨٤، قراءة توضيحية في الإنجيل، مصدر سابق. (المترجم)

في الساعة السادسة من صباح يوم الثامن من شهر يونيو رحلت عن الناصرة على ظهر الجواود، ومررت بمرتفعات الناصرة، تلك البلدة التي تحمل أغلى الذكريات التي استقرت في أعماق ذاكرتي.

بعد ذلك شاهدنا قرية صغيرة، يقول الناس إنها موطن يوحناً بعد أن غادرنا الناصرة بساعة ونصف، وصلنا إلى قانا التي ورد ذكرها في الإنجيل ضمن حكاية العرس، وقانا هي موطن شتائيل أحد تلاميذ المسيح، وقد دعى المسيح إلى العرس حيث حدثت معجزته الأولى حين حول الماء التي في الأجران إلى خمر طيب المذاق^(٢٧).



بحيرة طبرية

(٢٧) كانت هذه المعجزة هي الآية الأولى التي أجرأها يسوع في قانا بالجليل فآمن به تلاميذه، كما ورد في إنجيل يوحنا السفر الثاني. (المترجم)

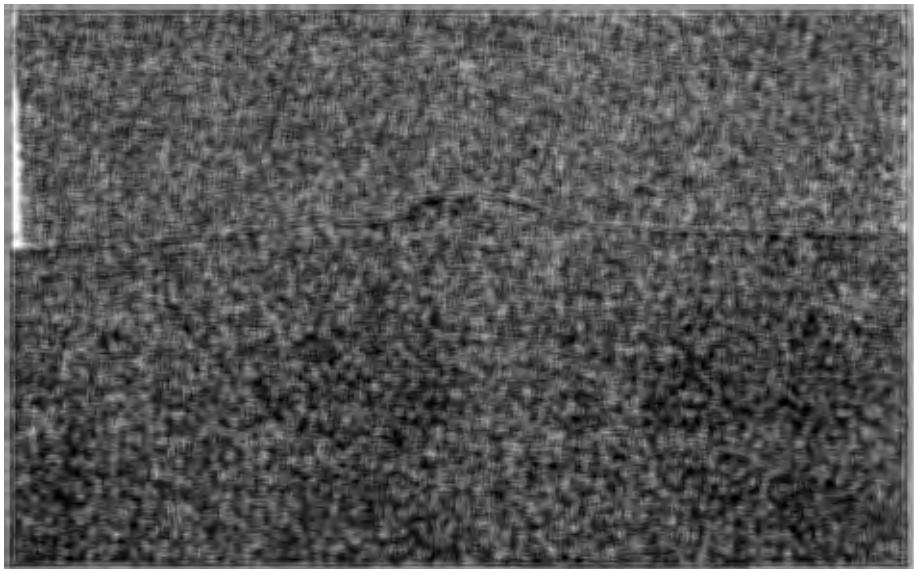
هنا في كنيسة الطائفة اللاتينية لا يزال يحتفظ بقطعة من الحجر وقطعة من العمود، وفي كنيسة الطائفة اليونانية لا يزالون يحتفظون بالجرن الحجري الذي استخدم حين حُول المسيح الماء إلى خمر، لكنى لم أتمكن من مشاهدة أي منها، وتضم قرية قانا الآن نحو ألف نسمة، شاهدت الأطفال اليهود يسرعون ناحية الزائرين يبيعون لهم مفارش قماش صغيرة مزخرفة توضع عادة تحت المزهريات، وبينما كان الجواب يمضى بي كنت أشاهد بقایا أطلال مبان رومانية، وقداني الطريق صعوداً وهبوطاً إلى مسطحات مرتفعة بين الجبال.

جبل الموعضة

ها هو الجبل، هنا ألقى المسيح موعظته الشهيرة المعروفة باسم "موعضة الجبل" قمة الجبل مستديرة، هناك أشجار نخيل قصيرة، الانحدار ليس بالشديد، هذا هو الجبل الذي أشار إليه متى في إنجيله في الإصلاح الخامس والسادس والسابع^(٢٨). شاهدت على جانب الطريق كثيراً من الأزهار البرية، فوضعت لها أسماء من عندي: زهرة الخطمي السورية ، وزهرة الكارنيشن الوردية السورية، والزهرة الصفراء الصغيرة السورية، والتقطت بعضها منها. هذا هو جبل الجليل، ليس بالجبل الموحش، فهو يبدو جبلاً مأولاً، لم أر بحر الجليل (بحيرة طبرية) بعد، أظن أن المنظر سيتضح لى بعد قليل، عند أقدام الجبل تغطي الخضراء هذه المساحات كلها في الربيع، وربما يعطى هذا انطباعاً بأن الناس يستيقون إلى القدوم هنا للنزهة. إن ما يتوارثه الناس من حكايات عن جبل الموعضة لا يعتوره أي شك، ففي شهر مارس وأبريل تكسو الخضراء هذه المنطقة، وتتفتح الأزهار البرية هنا وهناك، وتهب نسمات الربيع العليلة بينما الطيور تحلق منتشرة، تششقق، وتزقزق، وتفرد بأجمل الألحان وسط هذا الجو البديع... "الرب" يخاطب الناس، نحو خمسة آلاف شخص ينصلتون بشوق وسط الطبيعة الغناء.. يمكنني أن أتخيل ذلك المشهد جيداً، وبينما أتجول في الماضي البعيد أفت على

(٢٨) كان السيد المسيح قد ألقاها حوالي عام ٢٠ م على تلامذته وحشد كبير من الناس، ومن أهم ما ورد فيها إعلانه أنه لم يأت لينقض ما جاء قبله بل ليكملاه. "ما جئت لأنني بل لأكملا". إنجيل متى، الإصلاحات ٥ - ٦ - ٧. (المترجم)

صوت إبراهيم يناديني، لم أنتبه، فقد كنت غارقاً في الخيال، كنت أتخيل ما دار منذ عهود طويلة هنا على هذا الجبل، لكن نداء إبراهيم أيقظني، جعلني أعود من الخيال إلى الواقع، وكان على أن أمضى على درب الحقيقة... وأواصل رحلتي.

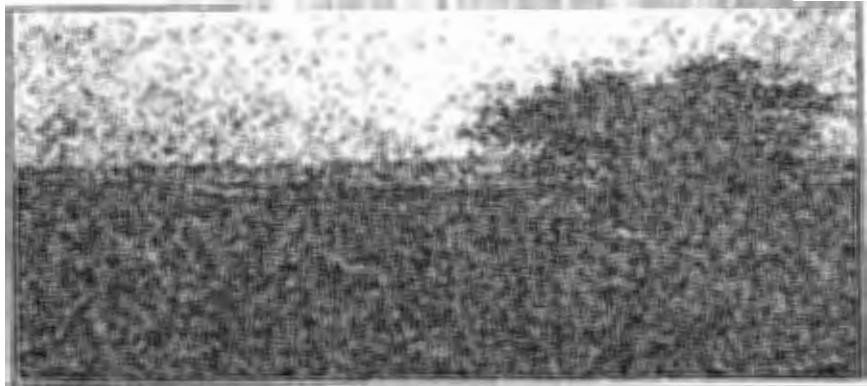


جبل الموعضة

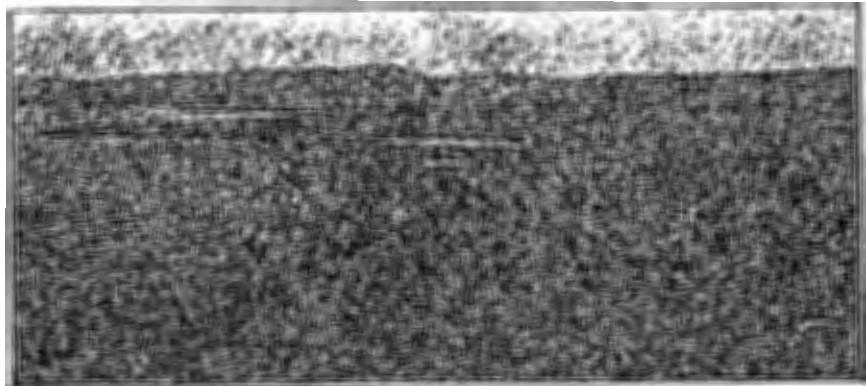
قرية طبرية

بعد جبل الجليل ظهر أمامي جبل حرمون، هناك بحيرة تحت الجبل، شاهدت المكان الذي وقعت فيه المعركة التي دارت منذ سبعمائة سنة وانهزم فيها الصليبيون على يد صلاح الدين. قدم ناحيتي طفلٌ وطلب مني "بقشيشاً"، وتعجبت هل يا ترى هذا الطفل ينتمي إلى أحفاد صلاح الدين؟ لكنني شاهدت أباً بعد ذلك ينهره بشدة ويؤنبه. ولأول مرة أشاهد ملامح أحفاد العظام تظللني؛ فشعرت بسرور عظيم.

وصلنا بعد ذلك إلى جانب البحيرة، ورغم أنها بحيرة صغيرة فإن مرافقي قال: تحت جبل حرمون شاهد طريقاً صغيراً يؤدى إلى البحيرة، وفي شمال البحيرة هناك منطقة زرقاء قاتمة هي أطلال كفر ناحوم، بيت صيداء، وكانت "مجدل" مطمورة تحت هذه الهضاب، بينما "طبرية" كانت ساكنة تحت أقدام الجبل لمدة... أخذت أشاهد البحيرة كما لو كنت أحلم.



أطلال كفر ناحوم



البحيرة

حملنى الجواد إلى قرية طبرية حيث وصلتها فى الساعة الحادية عشرة، ذهبني إلى فندق طبرية الذى يملكه رجل ألمانى، يبعد الفندق عن الناصرة مسافة ٢٨ كيلو متراً، شاهدت عند مدخل القرية أطلال جدران قلعة قديمة، يبلغ عدد سكان القرية ٤٠٠٠ نسمة، ثلثاها من السكان اليهود، والقرية مشهورة بأنها مركز لدراسة اليهودية، ولا يوجد حول البحيرة غير هذه القرية التى تمتلك أطلالاً ترجع إلى الأزمنة القديمة، وطبرية العصور القديمة تبعد عن هنا مسافة ٤٢ متراً^(٢٩) جنوب طبرية الحالية.

(٢٩) فى الأصل ١٤ جواً، والجو وحدة قياس يابانية قديمة تساوى ٢ أمتار. (المترجم)

فوق سطح البحيرة

بعد الظهر أخذت قاربا شراعيا لأتجول في البحيرة، شاهدت بعض البيوت، بعض أساساتها كان قائما داخل ماء البحيرة، وأسوار بعض البيوت القديمة كانت غارقة في الماء، يقال إن زلزالا أصابها مرة فتهدمت معظم البيوت، وغاصت في البحيرة. من القارب الصغير بالقرب من أطلال كفر ناحوم، كان معن بالقارب ثلاثة أشخاص، قاموا بنشر شراع القارب لأن الرياح واتتنا، فبدأ القارب ينساب على سطح ماء البحيرة في هدوء عجيب، كان لون الماء الذي يميل إلى الخضراء صافيا رقراقا، كان البحارة يشربون الماء مستخدمين علبة من الصفيح، يقولون إن عمق البحيرة حوالي ١٥٥ قدما، وهي منخفضة عن سطح البحر الأبيض المتوسط بنحو ٦٨٠ قدما، نحن الآن في شهر يونيو، تشتت الحرارة وبخاصة بعد الظهر، كنت أفرد شمسية فوق رأس لاقاء حرارة الشمس، وكان على أن أضع الماء فوقها لأجلب البرودة نحوى، لكنها كانت تجف خلال خمس دقائق بفعل الرياح وبفعل أشعة الشمس المحرقة، كان الأمر صعبا للغاية! وصار البحارة مملين!

يبلغ طول البحيرة من الجنوب للشمال نحو ٢٠ كيلو مترا^(٣٠) وعرضها ٨ كليومترات^(٣١)، وحولها من الناحية الشمالية هضاب ومرتفعات وبعض القرى، لكن من الناحية الشرقية لا يمكن أن أشاهد أى مبنى، لكنى شاهدت بعض المناطق المزروعة بالقمح، وربما يعيش هناك بعض الناس، لست أدرى! معظم الجبال لا يوجد فوقها أشجار أو أعشاب خضراء، لا يوجد إلا قمم الجبال المستطحة الداكنة، فهي جبال يمكن أن نسميتها الجبال الساكنة النائمة؛ إذ لا توجد خضراء تنمو وتتكاثر وتثير الحركة فوقها، ويرجع ذلك إلى أشعة الشمس الحارقة... وبعد ساعتين من التنزه بالقارب الشراعى وصلنا إلى أطلال كفر ناحوم حيث شاهدت أحجارا كثيرة متنوعة.

(٣٠) في الأصل ٥ رياض، والرى يساوى ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(٣١) في الأصل ٢ رين. (المترجم)

هذا هو المكان الذي شهد عدة معجزات، فكفر ناحوم مدينة المسيح الثانية بعد الناصرة، وشهدت البلدات الأخرى مثل كورزين وبيت صيدا الكثير من معجزاته، إلا أن أهلها لم يتوبوا فتبأ لها المسيح بالخراب، وقال عن كفر ناحوم "إنها إلى قعر الهاوية ستهبط" (٢٢). نزلنا من القارب وتركتها البحيرة، ومضينا وسط بساتين أشجار المشمش، لجأنا إلى مقر الطائفة اللاتينية هريرا من أشعة الشمس المحرق، نشعر هنا بجو يذكرنا بأهل الأزمنة القديمة، شاهدنا بقايا أعمدة يحتفظون بها، تبدو كأنها أعمدة أثرية أصلية، يقول الناس إن معجزة المشلول الذي أنزل من السقف، وإحياء ابنة بائير، وشفاء عبد قائد المائة، قد حدث هنا (٢٣). كنت أحملق في المبني مسترجعاً التاريخ البعيد.

بعد أن أخذت قسطاً من الراحة تحت ظلال هذا المبني أخذت القارب مرة أخرى واتجهت غرباً، شاهدت حقول القمح التي تمتد على مرمى البصر، وشاهدت الماء الجارى الذى يساعد الأزهار البرية على الإزدهار والتفتح، وبعد مدة شاهدت كنيسة تحيط بها بل تغطيها أشجار السرو الفارهة، وفي مكان ليس بالبعيد شاهدت النواعير وطواحين الماء.

الماء يتدفق ويجرى باستمرار دون توقف، يقول بعض الناس هذا بيت صيدا الذى ورد ذكره في الإنجيل "العهد الجديد"، لكن هناك من يقولون إن هذا ليس بيت صيدا، وهناك رأى ثالث يقول إن بيت صيدا اسم موقعين اثنين وليس اسمًا ملوقع واحد. كثير من الباحثين يقولون كلاماً مختلفاً، ولا أدرى ما هو الصحيح منه، وعلى كل حال أنا أعتقد أن موقع البحيرة والجليل هو نفسه الموقع منذ العصور القديمة، وعلى الأقل منذ ١٨٠٠ سنة لم يتغير حتى اليوم.

(٢٢) انظر ما جاء في إنجيل متى، ١١: ٢٢، ٢٢: ٢١ ، قراءة توضيحية في الإنجيل. (المترجم)

(٢٣) انظر إنجيل متى، الإصلاح الثامن والتاسع. (المترجم)

المسافة من نهر الأردن حتى القيصرية^(٢٤) حوالى ١٢ كيلومتراً^(٢٥) وبين هذه المنطقة توجد بلدات بيت صيدا وكفرناحوم ومجدل. بعد قليل وصلنا إلى القيصرية شاهدت في الماء أزهاراً جعلتني أتعجب، فهذا شيء غير عادي، والمنطقة من مجدل حتى بيت صيدا تبلغ كيلو مترين عرضاً^(٢٦) و٤ كيلو مترات فقط طولاً^(٢٧) وهذه المنطقة مملوءة بالحشائش والأعشاب، وتوجد بها عيون ماء جارية تشكل نهراً صغيراً يجري ليصب في البحيرة، كان خرير هذا الماء مثل صوت قطة تغدر، حاولت أن أشرب هذا الماء... يا له من ماء عذب! لا يمكنني أن أعبر عما انتابني من شعور بعد أن شربت هذا الماء العذب، هذا هو الماء بحق. شاهدت على شاطئ البحيرة الرمل معاراً وقواقع متاثرة، ووراء الشاطئ الرمل ينبع شجر التوت البري، والورد البلدي، وأشجار أخرى لا أعرف أسماءها. شاهدت "سلطعون" ... انزعج كثيراً مني، ونفر بعيداً عنّي، فجلست على الشاطئ الرمل، وشعرت بالهواء العليل، بينما كنت أقطع الوقت بمشاهدة الجبل من الناحية الشرقية من البحيرة.

ركبت القارب مرة أخرى ورجعت ثانية إلى طبرية، في الجزء الجنوبي من حقول القيصرية وتحت أقدام الجبل بالقرب من ماء البحيرة يوجد نحو ١٥ بيتاً طينياً لا يعيش فيها أحد، يقول الناس إنها أطلال المكان الذي كانت تعيش فيه مريم المجدلية. حين وصلت إلى طبرية كانت الشمس على وشك الغروب، وكان الهواء قد بدأ يهب عبر البحيرة، بينما كان بعض الناس يستحمون فيها، وكان البعض الآخر يرشون الجياد بالماء وينظفون أجسامها، بينما جلس بعض الناس على الشاطئ في استرخاء، يتمتعون بهواء المساء البارد، وكان بعض الصياديون يرمون بشباكهم ليصطادوا السمك.

نزلت من القارب، ووضعت الماء في فمي وتمضمضت، وغسلت رأسى بالماء، وغسلت يدى، ثم جلست على صخرة قريبة، وبدأت أفك واستغرقت في حالة تأمل مدة طويلة!

(٢٤) وتنطق "القيصرية" بناتها هيرودس الكبير الذي عاش بين ٧٤ قبل الميلاد و٨ ميلادية. (المترجم)

(٢٥) ورد في الأصل ٢ ريات، والري وحدة قياس طولية يابانية قديمة، وهو ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(٢٦) في الأصل نصف رى.

(٢٧) في الأصل وريًّا واحداً.

الجليل مكان شاعرى مثل قصيدة شعرية

الجليل! آه يا الجليل ! تربتك تتميز بالخصوصية، جبالك هادئة توحى بالسکينة،
بحيرتك رقاقة صافية!

يسوع المسيح! أنت ابن هذه الطبيعة، أنت نظام الشعر، أنت ابن القرية، أنت
إنسان بسيط عادى، كنت تتبعد أمام بحيرة الجليل، كنت تعلم فوق القارب، كنت
تُعلم في هذا الوادى، جعلت من الصيادين حوارييك، عطفت على النساء
والأطفال، وأوصلت إيمانك إلى عقول الناس وقلوبهم، وعلمت الأطفال الصغار
الحقيقة الخفية، لقد نشأت في الجليل، والجليل لها مكانة خاصة بالنسبة لك...
سوف أولد من جديد، لا بد أن أذهب إلى الجليل... . هذا شعور إنسانى طبيعى،
أن يرغب إنسان عاش في مكان ما أن يعود إلى موطنها مرة أخرى، إن حبة قمح
تجف وتنتهي تنتج سنبلة فيها عشرات الحبات... لا يمكن إنقاذ الآخرين دون
تضحيه دون فداء، لقد كنت فداء للبشرية ، أنت الحب كله، لقد ذهبت بشجاعة
إلى حيث قدّمت نفسك فداء على الصليب، معلنًا النصر إلى الأبد.

إن استمرار الحياة والموت مثله مثل الماء، فيمكن أن نشاهد قطرة من ندى
هرمون تتدحرج إلى ماء البحيرة، ثم يمضى ماء البحيرة إلى البحر الميت، هذه
دورة مستمرة لا تتغير، يا إلهى! حبك يصل إلى الأعماق، ذكاؤك عميق، قوتك
عميقة جدا، يسوع المسيح شرح للناس كيف يعيشون، حياة المسيح وموت المسيح
هما لنا مثال نحتديه، شاهدنا ما فعلت، يا أبانا كم أحببتنا! حين أحببتنا،
أحببتنا بعمق، أدركنا أننا أبناء الله، لك العظمة إلى الأبد!

نهر الأردن مرة أخرى

في الساعة التاسعة من صباح يوم التاسع من يونيو أخذت القارب، كنت ذاهباً لأركب القطار المتجه إلى حيفا، اتجه القارب جنوباً حيث وصلنا بعد حوالي ساعة ونصف إلى قرية صفيرة تسمى "سيماك"؟، كان أمامي وقت طويل قبل الموعد المحدد للقطار، لذا كانت فرصة لأشاهد القرية. الماء يبدأ من هنا، من جنوب غرب البحيرة، حيث يولد نهر الأردن من جديد من هذه البقعة، ولون ماء بحيرة طبرية أزرق فاقع، وتنمو تحت ماء البحيرة بعض الأزهار البرية، وهناك جسور صفيرة تمتد إلى داخل البحيرة، تساعد الناس على الوصول إلى القوارب، لكن لا يوجد أى مكان ظليل. أردت أن آخذ راحة، فبحثت عن مكان ظليل، ووجدت ظل صخرة كبيرة فأوتيت إليه، هذا النهر ينبع من جبل هرمون ومن جبل لبنان، ويلتقى الفرعان معاً ليشكل بحيرة "بازونى" ومن هذه النقطة يسقط شلال الماء من ارتفاع ١٧٠ قدماً ليشكل بحيرة "هيوريه"؟ ثم يسقط ثانية من ارتفاع ٦٩٠ قدماً ليصل إلى بحيرة طبرية، ومن هنا من بحيرة طبرية ينساب إلى البحر الميت لمسافة ٦٦١ قدماً، وإذا رسمنا خططاً مستقيمة من البحر الميت وصولاً إلى منبع نهر الأردن فإنه يشكل ١٣٧ أميلاً.

الماء كائن حي يتحرك ، قطرة ماء واحدة تنزل في البحيرة، ويتحرك الماء إلى النهر ثم يتكون شلال الماء المنهر، ويمضي الماء هبوطاً وصعوداً إلى أن ينتهي به المطاف ليموت في البحر الميت، لكن الماء لا يموت حقاً؛ فسوف يعلو ثانية إلى السماء وينزل مطراً ويعيد دورته، وهكذا شاهدت حياة يسوع المسيح ممثلاً في هذا الماء، هنا يمكن أن نشاهد أسطورة الأردن... كم هو شيق تاريخ الماء! أجلس بالقرب من هذا الماء، ماء نهر الأردن، أطلع إلى جبل هرمون من حيث ينبع النهر، وأنظر إلى سطح البحيرة، وتحت أقدامى تجري مياه النهر، أفكر في مصير هذا الماء، لا يمكنني أن أعبر عن مشاعرى، وما يدور بداخلى، أقول وأقول ثانية وأكرر: "إلى الأبد يا نهر الأردن!" .

عبور الجليل

تحرك القطار في الساعة الثالثة بعد الظهر، هذا القطارتابع للحكومة التركية، تديره وتشرف عليه، وقد تم افتتاح هذا الخط بين دمشق وحيفا، وهناك

ثلاث رحلات فقط في الأسبوع، يقولون إنهم ينشئون الآن خط سكة حديد يربط بين دمشق ومكة في الجزيرة العربية، يسمونه خط سكة حديد الحج (الحجاج).

عبرنا جسر نهر الأردن، ومضينا تجاه الغرب، على الشمال جبال الجليل وعلى اليمين هضبة هرمون، شاهدت الناصرة على قمة الجبل، كان القطار يمضي بالقرب من جبل الكرمل، وشاهدت نهرا صغيرا يطلقون عليه اسم كيشون، ويقال إن إيليا دعا الله هنا فاستجاب له، وقتل إيليا أنبياء البعل^(١).

بعد مدة من القطار من حقول عكا، وفي الساعة السابعة مساء وصلنا إلى ميناء حيفا... وهنا انتهت رحلتي إلى فلسطين، وسirجع مرافق فليب في اليوم التالي وهو يوم العاشر من يونية من حيث أتي، أما أنا فسامضي إلى حيث عقدت العزم، إلى روسيا.

سوف أنتظر السفينة في حيفا خمسة أيام، من فوق رأسى شاهدت جبل الكرمل، وشاهدت مدينة عكا، ومن ليلة التاسع من يونية حتى صباح يوم الرابع عشر منه لم أتحرك هنا أو هناك، قبعت في غرفتي بفندق "تصار" وأخذت قسطاً وافرا من الراحة.

شذرات

الرب ليس في الهواء الواسع! والبذور لا تحتاج إلى مساحة واسعة لتموا!

هذه المساحة لا تتعدي ١٦٠ كيلومترا طولاً و٤٠ كيلومترا عرضاً^(٢) كنت أتعجب، فقد كانت مساحة المنطقة التي شهدت نشاط المسيح صغيرة جداً، وأثار يسوع المسيح هنا هي فقط السماء والهضاب والجبال. الجسد اختفى، لكن الروح

(١) إيليا هو باليونانية أيلياس، وهي الصيغة المستخدمة في العربية إلياس، وقد ورد في سفر ملاخي النبي أن الله تكلم إلى إيليا ليمسح ياهو ملكاً على إسرائيل... وفي نهاية أيامه ذهب مع اليشع إلى الأردن ، وقد ورد ذكره في سفر يوحنا وفي سفر متى أيضاً، ونهر كيشون يجري بالقرب من حيثنا. (المترجم)

(٢) في الأصل ٤٠ رياً طولاً و١٠ رياً عرضاً. (المترجم)

لا تزال باقية... ياللأسف! يا له من مكان يبعث على الحزن، مكان الفداء، مكان التضحية، أتمنى لو يعاد المشهد من جديد!

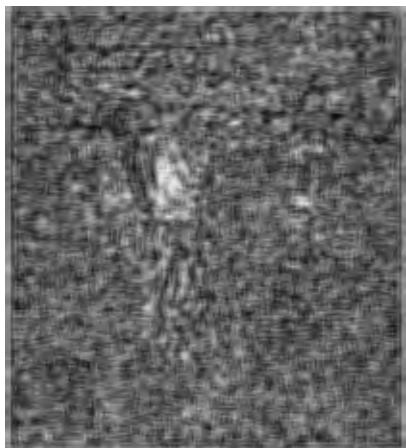
فلسطين مملوءة بالكنائس، فلسطين مزدحمة، مملوءة بالصخب والجلبة والضوضاء، لذا لم أتمتع بالشعور الروحاني، لم أتل نصيباً من السكون الروحي، تمنيت لو أتخلص من ضوضاء الزحام الشديد والصياح... حين تبدأ الشمس بالغيب، وتتحول السماء إلى لون الشفق الأحمر، ثم تبدأ النجوم تتلألأ على صفحة السماء، يبدو المنظر كأن الدنيا قد سكت، فيثير هذا المنظر في داخل المؤود مشاعر الحزن، و يجعلني أسترجع أحداث الأزمنة الخوالي!

أعتقد أن أفضل موسم للسياحة في فلسطين هو فصل الربيع، وبخاصة في شهر مارس وأبريل، حيث يمكن للمرء أن ينال كل شيء، ولا يوجد أى خطر قد يحيق بالسائح، ومن الأفضل للمرء أن يمشي بنفسه، ويمكنه أيضاً أن يأخذ عربة حنطور أو يؤجر جواداً أو يركب القطار، كنت أحمل نعلاً يابانياً من القش، وهو نعل ياباني تقليدي، لكنني للأسف لم استخدمه، وتأسفت على حملي له هذه المسافة الطويلة دون أن استفيد منه.

أهل الشام في معظمهم يعملون بالزراعة والرعى، وهم في الأغلب فقراء، شاهدت الوشم مرسوماً على أيدي الرجال والنساء وعلى أذرعهم وجباهم ووجوههم، وتزين المرأة عادة بعقود وأساور تتدلى منها قطع من العملات الفضية أو الذهبية، وشاهدت نساء الطبقة الدنيا يمشين حفاة، بينما يغطى نساء الطبقة العليا أنفسهن بنوب حريرى أسود اللون أو بلون أزرق فاتح أو قاتم، من الرأس إلى أخمص القدمين.

ذكر لي مرافقي فيليب أن أهل الشام الأصليين يتحولون إلى المسيحية تدريجياً، فالبريطانيون يبذلون نشاطاً كبيراً في التنصير، وقال فيليب أيضاً إن الناس هنا لا يشعرون بالارتياح للحكومة التركية، وهم يتمنون أن يأتي البريطانيون هنا، فمصر على سبيل المثال سعيدة في ظل البريطانيين^(٢).

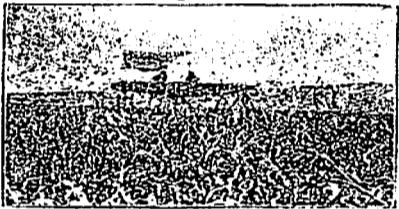
هنا كثير من الذباب والناموس والبق، شاهدت الثعابين بالقرب من بحيرة طبرية، شاهدت أحد الصبية في الفندق يقتل ثعباناً ويغمسه في الكحول، في ذلك الفندق يبيعون هذه الثعابين والأفاعي والحشرات المحفوظة في الكحول والمحنطة، ويباعون أنواعاً من السمك غير معروفة لي، كما يبيعون الطيور المحنطة مثل أبي قردان والغريان والعصافير، إلا أنني لم أشاهد حيوانات برية على الإطلاق، والنباتات في وادي الأردن كثيرة، فالخضروات تشمل أنواع الخيار والقطاء والفاوصوليا الخضراء والطماطم والبطاطس والباذنجان، ومن الفاكهة المشمش والخوخ والتفاح الصغير والتوت، أعتقد أنه بالقرب من دمشق توجد "جنة الفواكه"!



سقاء يحمل قرية ماء



صياد في البحيرة



كوخ لحراسة الحقل

(٢) هذه الآراء التي نقلها المؤلف عن مرافقه فيليب تحتاج بالضرورة إلى مراجعة، وفي الجزء الثاني من الرحلة شاهد المؤلف ثورة ١٩١٩ م في مصر وعبر عن مشاعر مختلفة. (المترجم)

الينبوع المتجدد

من الحماقة أن نفكّر هذه الأيام في البحث عن آثار أقدام المسيح في فلسطين، وحتى لو وجدت بقايا عظام كتب عليها "هذه عظام المسيح"، فماذا عسّى أن أفعل؟ لماذا جئت إلى هذا المكان من أقصى الشرق لأبحث عن ماء الحياة؟

منذ ثلاثة سنوات كنت أفكّر وأفكرة في ضرورة تغيير حياتي، استرجعت شريط سيرة حياتي المخجلة... ذات ليلة رأيت حلمًا:

كنت أحمل أمي على ظهري ، وأتسلق كما لو كنت أتسلق جبل السامرية، كنت أشعر بالعطش الشديد، وبعد مدة وجدت ماء ينبع من باطن صخرة، صرخت وناديت: يا أماه! انتظري هذا ماء الحياة، لكنني بعد أن صرخت أفقت من حلمي .

قبل أن أبدأ رحلتي هذه نظمت شعراً لوداع أمي:

أشعر أن هذه هبة من الله

أن يهديني إلى نبع ماء الحياة

أتذكر أن الأستاذ أوه يومي Oh Yomei الصيني نظم شعراً جعلنى أتذكر ماء الحياة:

عن يسوع المسيح ما زلت أبحث

أبحث عن ماء الحياة

اعتقد أنه موجود في أعماق فؤادي

ذلك الذي أبحث عنه

"أما مريم فظلت واقفة في الخارج تبكي عند القبر، وبينما هي تبكي انحنت إلى القبر، فرأت ملاكين بثياب بيضاء، جالسين حيث كان جثمان يسوع موضوعاً، واحداً عند الرأس والآخر عند القدمين، فسألتها: يا امرأة! لماذا تبكين؟" أجبت:

أخذوا سيدي، ولا أدرى أين وضعوه قالـت هذا والتفت إلى الوراء، فرأـت يسوع واقفا، ولكنـها لم تعلم أنه يسوع، فسألـتها: "يا امرأة لماذا تبكيـن؟ عمن تبحثـين؟" فظـنت أنه البستانـي فقالـت له: "يا سيد إنـ كنت قد أخذـته فقلـ لي أين وضعـته لـأخذـه" فـنادـها يسوع: "يا مريم" فالـتفـت وهـتفـت بالـعـبرـية: "ربـونـي" أيـ يا مـعلمـ. فقالـ لها: "لا تمـسـكـ بيـ! فـبـانيـ لمـ أصـعدـ بـعـدـ إـلـىـ الآـبـ، بلـ اـذـهـبـيـ إـلـىـ إـخـوـتـيـ وـقـولـيـ لـهـمـ إـنـيـ سـأـصـعدـ إـلـىـ أـبـيـ وـأـبـيـكـمـ، وـإـلـهـيـ وـالـهـكـمـ". فـرجـعـتـ مـريمـ المـجـدـلـيـةـ وبـشـرـتـ التـلـامـيـذـ قـائـلةـ: "إـنـيـ رـأـيـتـ الـرـبـ" وأـخـبـرـتـهـمـ بـمـاـ قـالـ لـهـاـ^(٤).

(٤) وردـتـ تـرـجمـةـ النـصـ بـالـيـابـانـيـةـ، وـقـدـ نـقـلـنـاـ النـصـ عـنـ الـعـرـبـيـةـ مـنـ كـتـابـ قـراءـةـ تـوضـيـعـيـةـ فـيـ الإـنـجـيلـ، طـ٢٠٠٩ـمـ، الـكـيـسـةـ الإـنـجـيلـيـةـ بـالـقـاهـرـةـ (إنـجـيلـ يـوحـنـاـ ٢٠ : ١٨ - ١١). (المـترجمـ)

بحر التاريخ والجزر الحالية

(من حيفا إلى القسطنطينية)

لاماح فينيسيا وسماتها

في الساعة التاسعة من صباح يوم الرابع عشر من يونيو غادرت فلسطين متوجهًا إلى القسطنطينية، أسفار هذه المرة على السفينة الفرنسية "أوريونوك"، ومن المتوقع أن تستغرق هذه الرحلة البحريّة نحو أسبوع. أصابني التعب والإرهاق، سوف أسفّر على الدرجة الثانية في درجة رجل محترم، وأضع نفسي في مكانة أعلى من مكانتي السابقة حين كنت مسافراً للأراضي المقدسة في فلسطين.

كانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر حين مضت السفينة عبر ميناء عكا، لتدخل مياه البحر الأبيض المتوسط متوجهة إلى مدينة البندقية "فينيسيا"^(١).

صعدت على سطح السفينة في الجزء المسوّف، فشاهدت عدداً كبيراً من الرهبان، كان بعضهم يرقد مسترخيا، والبعض الآخر يجلس على الأريكة، في حين كان عدد آخر يتطلعون هنا وهناك مستخدمين المناظير المكثرة. كنت أشاهد الشاطئ، لم يكن وعرا بل كان سهلاً منبسطاً، ومناسباً ليكون ميناً، بعد ساعتين من مغادرتنا ميناء حيفا، مررنا ببلدة صور، شاهدت بيوتها البيضاء قرب الشاطئ، يقال إن عدد سكانها ٧٠٠٠ نسمة، وكانت تدعى قديماً "تسور"^(٢). بعد صور اتجهنا شمالاً نحو ٢٢ كيلو متر^(٣)، حيث مدينة صيدا، يقال إن عدد

(١) مدينة فينيسيا، اسمها بالعربية البندقية وبالإيطالية Venezia، تمتد لتشمل ١١٨ جزيرة في مستنقعات بحيرة البندقية على طول البحر الإدريatici. (المترجم)

(٢) من المعروف أنها لعبت دوراً حضارياً في الحقبة الفينيقية، وأنشأت مستوطنة قرطاجة التي قارعت الدولة الرومانية وقاومت زحف الإسكندر الأكبر. (المترجم)

(٣) جاء في الأصل ٨ ريات، والري يساوي ٤ كيلومترات. (المترجم)

سكنها ١٢ ألف نسمة، وبها آثار "صيدون"^(٤)، ومن الخلف كنت أشاهد جبال لبنان بهضابها ومرتفعاتها التي تغطيها الأشجار المرتفعة. لقد كانت هذه المنطقة في يوم من الأيام رائدة في مجال الحضارة، ولعبت دوراً حضارياً في تاريخ آسيا، فقد واجهت قرطاجنة الدولة الرومانية...

هذه بقايا أحلام أهل فينيسيا "البندقية"، جبال لبنان تناطينا، تقول لنا: لا تنتظروا خلفكم! انطلقوا إلى الأمام، انطلقوا إلى البحر، فالبحر يناديكم، أرضكم ضيق، فانطلقوا للمكان الفسيح الربح، لا شك أن أهل فينيسيا "البندقية" كانوا يعيشون في هذه المنطقة، لكنهم اليوم ذهبوا من هنا! هناك شعاع بسيط من شمس تمبل إلى الغروب يشير إلى الجبال في حزن وأسى!

السفينة تمضي في البحر بين أشعة الشمس الذهبية ساعة الغروب؛ في الساعة السادسة وصلنا إلى ميناء بيروت، هذا ميناء سوري تأثر كثيراً بالغرب، لذا يعيش على الطريقة الأوروبية، يبلغ عدد السكان هنا نحو مائة ألف نسمة، شعرت أن الجبال قريبة جداً، والبحر أيضاً قريب جداً، بدأ بيروت بالنسبة لي مثل مدينة كوبية في اليابان، وهناك خط سكة حديد يسير حتى دمشق.

البحيرة المملوهة بالجزر

في الخامس عشر من شهر يونيو ألقت السفينة الفرنسية "أورينوك" مراسيها في ميناء بيروت، السفينة الفرنسية تتميز بالنظام والنظافة، والفرنسيون يمتازون بالنشاط، ويميلون إلى المرح والبهجة، بدأ أحد البحارة يعزف على الكمان بينما كان زملاؤه يرقصون في مرح وسرور.

في السادس عشر من يونيو أقلعت السفينة ناحية الفرب، فكان علينا أن نقول لسوريا وداعاً، بينما كانت الريح تهب بشدة، والأمواج العاتية تضرب السفينة.

في اليوم السابع عشر من يونيو كانت الريح لا تزال تعصف، والبحر لا يزال هائجاً، يضرب السفينة بالأمواج الشديدة، لذا لم أخرج من كابينتي، وكانت أقضى

(٤) الموقع الحالي يختلف، قليلاً عن الموقع التاريخي، لأن معظم الآثار المكتشفة وجدت في القباعة والهلالية وتل شرحبيل، وعلى كلّ فمدينة صيدا هي وريثة صيدون الفينيقية. (المترجم)

قطع البسكويت، وأنا جالس أقرأ الشعر. كان رفيقى فى الكابينة رجلاً تركياً مهذباً فى منتصف العمر، وقد ركب السفينة من بيروت، تعاطف معى كثيراً ورقاً لحالى لأن شكلى كان يدل على ما أعانيه من تعب وإرهاق، فقدم لي برتقالتين. هذا الرجل المحترم عاش فى بريطانيا لوقت طويل، وهو يعمل فى تجارة النبيذ.

فى اليوم الثامن عشر من يونيو حين استقيطت من نومى وجدت السفينة تمضى فى بحر إيجه الواقع بين شبه جزيرة اليونان والأناضول، مررت بنا السفينة على جزيرة رودس، واقتربت السفينة من جزيرة سبورادس، وفجأة شعرت بأنى أصبحت بخير، واستعدت عافيتى، فصعدت إلى سطح السفينة لأشاهد المنظر بوضوح، من ناحية بحر إيجه كان الجو صحوا، لكن المطر كان يهطل ناحية اليونان، وفوق البحر ظهر قوس قزح، فكتبت شعراً عن هذا المنظر البديع:

هناك رسول قادم من أقصى الشرق
رسول من أمة اليابان
ببوابة الألوان السبعة ترحب به

كنت منتشياً، وكان قلبي مفعماً بالسرور بسبب هذا المنظر الرائع. توقف المطر، وتلاشى قوس قزح، وبدأت الشمس ترسل أشعتها لتضيء سطح البحر، كم هو جميل بحر إيجه! حين كانت السفينة تمر بين هذه الجزر فى بحر إيجه، كنت أشعر كما لو كنت فى بحر سيتونايكائى setonaikai، لكنى الآن فى البحر الفاصل بين أوروبا وأسيا، حيث يوجد الكثير من الجزر^(٥). منها الصغيرة والكبيرة، ورغم عددها الذى يصعب حصره فلا يوجد منها جزيرة تشبه الأخرى. شاهدت الجزر التى تطفو على المياه الزرقاء، كان لونها أخضر فاقع الخضراء، وكان بعضها يبدو بلون بنفسجي، وأخر بلون رمادي، وكنت أسمع أحياناً عزف قيثارة، وشاهدت فى بعض الجزر حدائق العنبر المثمرة التى تدللت قطوفها بألوانها البيضاء، وكان من حولنا وعلى بعد منا قوارب ويختوت ومراكب الصيادين تمضى ببطء، كان منظرها رائعًا، وفي إحدى الجزر شاهدت تمثال رودس^(٦). هذا هو بحر التاريخ.

(٥) يقال إن هناك نحو 118 جزيرة في بحر إيجه. (المترجم)

(٦) أقيم تمثال رودس سنة 292 ق. م، وكان قد انطوى ثم أعيد بناؤه. (المترجم)

أو هو كتاب يحمل صفحات التاريخ، وهذه الجزر هي جزر الشعر والرومانسية،
أتعجب كيف يفقد الشعر هذا المكان الساحر؟^{١٦}

في الساعة التاسعة صباحاً وصلنا إلى ميناء بطرسوس، يقولون إنه في مكان
في هذه الجزيرة كتب يوحنا الرؤيا التي تراة له في أحداث سفر الرؤيا^(٧)، وكل
الجزر القريبة من هنا ما هي إلا ساحات مقابر للأولين!^(٨)

في اليوم التاسع عشر وصلنا إلى "سميرنا"^(٩) وهي من أكبر موانئ آسيا
الصغرى، يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة، ويقال لها لؤلؤة بحر إيجه، وهنا
تخيلت ميناء "ناجازاكى" في اليابان.

إلى القسطنطينية

استيقظت يوم ٢٠ يونيو حين كانت السفينة تعبر مضيق الدردنيل
والبوسفور^(١٠)، ذات مرة عبرت جيوش الفرس من هنا، كما أن الإسكندر الأكبر
عبر أيضاً من هذا المكان، الجبال على الجانبين بارتفاع نحو ١٥٠ متراً^(١١)،
ومساحة مضيق تبلغ نحو كيلومترتين، على الجانب الآسيوى شاهدت قلعتين
أثريتين، وهنا كانت عاصمة الأتراك القديمة، قبل أن يستولوا على القسطنطينية،
وتوجد بقايا مدافع قديمة، وأطلال قرى، وشاهدت ثلاثة سفن تركية مثبتاً عليها

(٧) بطرس جزيرة يونانية وكتائسها تابعة للكنيسة الأرثوذكسية، وقد ذكرت في الكتاب المقدس في سفر
الرؤيا، العهد الجديد، وكان يوحنا قد نفى إلى هذه الجزيرة، لذلك تعد بطرسوس مكاناً للحج
المسيحي، فنبع الكهف الذي يعتقد أن يوحنا كان فيه عندما تراة له أحداث سفر الرؤيا.
(المترجم)

(٨) يقصد أزمير، سميرنا هو الاسم القديم لأزمير التي يرجع تاريخها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد،
وقد حاصرها الفرس وصارت متعددة الثقافات وثاني أكبر مدينة من مدن الإمبراطورية الإغريقية
بعد إسطنبول. (المترجم)

(٩) مضيق البوسفور يصل البحر الأسود وبحر مرمرة ويفصل تركيا الآسيوية عن تركيا الأوروبية وتقع
إسطنبول على ضفتيه، بينما يقع مضيق الدردنيل عند الحدود الجنوبية بين قارتي آسيا وأوروبا
وطول البوسفور نحو ٢٢ كم واتساعه ٥٤٩ عند أضيق نقطة و٢٠٠٠ م عند أوسع نقطة. (المترجم)

(١٠) في الأصل ٥٠٠ شاكو، والشاكو وحدة قياس طول قديمة تساوى ٢٠ سم. (المترجم)

مدافعاً، وصلت السفينة الفرنسية إلى بحر مرمرة، ومن الناحية الشرقية شاهدت جزيرة مرمرة، ومضينا شمالاً لتقترب السفينة من مدينة سان إستيفانو الصغيرة^(١١)، وهي مشهورة: فبعد حرب روسيا وتركيا الثانية عقدت بها معاهدة السلام^(١٢). من فوق الهضاب والمرتفعات كان يمكنني أن أشاهد مساجد المسلمين، وتعجبت كثيراً من كثرة أعداد هذه المساجد التي بدت بقبابها الصغيرة والكبيرة وبجانبها المآذن العالية، شاهدتها هنا وهناك وبدت ككتل بيضاء وكتل رمادية أو وردية، وهذا المنظر لا يمكن أن نشاهده إلا في القسطنطينية.

سألت مرافقي التركي عن سانت صوفيا فقال لي: لا تسأل مثل هذا السؤال، لأن البوليس إذا شك فيك، فسوف تتعرض للمتابعة. مضت السفينة وشاهدت حي سوكوتاري^(١٣)، وهو الحي الشهير الذي عالجت فيه المرضة الإنجليزية نايتينجل جرحي حرب القرم^(١٤)، عن يسارى كان يمكنني أن أشاهد منظر القسطنطينية بالكامل، وقد وصلت السفينة إلى منطقة "جلطا"^(١٥).

مقطفات عن تركيا، القسطنطينية من أعظم مدن العالم

من يبحر في بحر مرمرة ومضيق البوسفور يجد نفسه أمام مدينة القسطنطينية العظيمة التي تعد بوابة القارة الأوروبية، وقد بناءها الإمبراطور

(١١) سان إستيفانو ضاحية من ضواحي إسطانبول على الضفة الأوروبية من بحر مرمرة. (المترجم)

(١٢) يشير المؤلف إلى معاهدة سان إستيفانو التي فُرضت على الدولة العثمانية المنهزمة أمام روسيا في الحرب التي نشبت في أبريل ١٨٧٧م . انظر: محمد فريد، تاريخ الدولة العثمانية العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقى، دار الناشئ، بيروت ٢٠٠٢م. (المترجم)

(١٣) يشير المؤلف إلى حي scutari في إسطانبول الذي يعرف حالياً باسم اوسكودار uskudar. (المترجم)

(١٤) يشير المؤلف إلى المرضة المشهورة تاريخياً باسم فلورنس نايتينجل (١٨٢٠ - ١٩١٠م) وكانت رائدة في التمريض، وأسهمت في علاج الجنود المشاركين في حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦م) بصرف النظر عن جنسياتهم؛ مما مهد السبيل للياد ما يعرف باسم منظمة الصليب الأحمر، وكان المعسكر البريطاني قد أقيم في حي اوسكودار في إسطانبول. (المترجم)

(١٥) جلطا Galata هي من أحياه بيوجلو ضمن محافظة إسطانبول على الجانب الأوروبي، تقع على الشاطئ الشمالي من القرن الذهبى الذي أقيمت عليه عدة جسور، من أشهرها جسر جلطا. (المترجم)

قسطنطين منذ ألف وخمسمائة سنة^(١٦)، وعلى جانبي المضيق تقسم المدينة إلى قسمين أحدهما في آسيا والآخر في أوروبا. كانت السفينة تمضي في بحر مرمرة، إذا مضينا شمالا دخلنا البحر الأسود، وإذا نزلنا جنوبا عدنا للبحر الأبيض المتوسط، كم هو رائع وجميل بحر مرمرة!

كان الميناء مثل قرن جاموسه^(١٧)، يدخل من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي في عمق الماء، والمسافة بطول ثمانية كيلومترات^(١٨) ويعرض ١٥ مترا^(١٩). توجد مبانٌ كثيرة حول هذا الميناء، ويطلق الناس على جزء من الميناء اسم إسطنبول، وهنا المدينة القديمة، وشمال الميناء يطلقون عليه اسم بيرا، ويسمون المكان الذي ترسو فيه السفينة "جلطا"، وإذا عبرنا الميناء من الجنوب إلى الشمال، فهنا يُطلق على المكان اسم القسطنطينية^(٢٠)، وهنا أيضاً شاهد الكثير من المباني العالية بألوان مختلفة، وقد شاهدت في هذه المنطقة أيضاً العديد من المساجد المميزة بقبابها وماذنها، وشاهدت كثيراً من الناس يعبرون الجسر، وهناك أعداد كبيرة من السفن راسية في الميناء، ومن الجانب الشرقي يمكنني أن أرى "حي أوسكودار"^(٢١) وأعداداً لا حصر لها من القوارب والراكب الصغيرة والسفن بأحجام مختلفة تتحرك متلاصقة يزاحم بعضها بعضًا هذه هي مدينة القسطنطينية الشهيرة، لكن يا للخجل! فأنا الإنسان المريض القادم من أقصى الشرق أصف هذه المدينة بأنها مدينة قذرة وغير مريةحة على الإطلاق!

(١٦) كانت القسطنطينية في الأساس تدعى بيزنطة، وقد وجدت في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وقد جعلها قسطنطين الأول عاصمة له سنة ٣٢٤ فسميت باسمه، وهي التي سميت الأستانة أو إسطنبول أو إسطنبول بعد الفتح العثماني أو إسلامبول. (المترجم)

(١٧) لهذا أطلقوا عليه القرن الذهبي، وهو عبارة عن شبه جزيرة في إسطنبول، ويقع فيه قصر الباب العالي ومسجد السلطان أحمد وأيا صوفيا. (المترجم)

(١٨) في الأصل ريان، والری يساوى ٤ كيلو مترات. (المترجم)

(١٩) في الأصل ٥ جوارات، والجو وحدة قياس قديمة تساوى ٢ أمتار. (المترجم)

(٢٠) ربما يشير المؤلف بهذه التسميات إلى الأحياء التي تتكون منها "إسطنبول الكبرى". (المترجم)

(٢١) انظر حاشية (١٢) السابقة. (المترجم)

وصلت القسطنطينية مساء يوم عشرين يونية، وأقامت في فندق "لندن" في منطقة "بيرا"، وفي اليوم التالي خرجت للتفرج على المدينة. يبلغ تعداد سكان المدينة ١١٠ ألف نسمة، وتُضاء شوارعها بمصابيح تعمل بالغاز، لكن لا توجد كهرباء ولا هواتف، وشاهدت عريات تجري على القصبان تجرها الخيول، حين جاء الإمبراطور الألماني هنا زار هذه المنطقة، لهذا أنشأوا سكة حديد في مسافة قصيرة. سمعت إشاعة من قبل لكنى الآن أتعجب من الكلاب في القسطنطينية، فهنا يوجد كثير من الطراییش وكثير من الكلاب، وإذا سألتكم عدد الناس الذين يعيشون هنا، قالوا: ١١٠ ألف نسمة. لكن إذا سألكم عدد الكلاب، قالوا: ما زلنا نقوم بعملية الإحصاء.

ذكر لي بعض معارفى ممن زاروا تركيا من قبل أنه أحصى ٢٥ كلبا في مربع حى صغير، والكلاب تتحرك في الطريق هنا وهناك، وتنام أيضا في الطريق، وهى كلاب أجسامها مثل أجسام الذئاب الضامرة، وجميعها بلا صاحب، كلاب ضالة، لهذا فهي دائمًا جائعة.

لا يهتم الأتراك بالوقت أبداً، ولا يهتمون بالنظام أيضاً، فهم يقومون بـالقاء القمامه في الطريق أثناء الليل، فتتدفع الكلاب الجائعة إلى هذه القمامه، فتلتهم كل شيء، وتبدو هذه الكلاب كما لو كانت تقوم بأعمال النظافة في الشوارع، وقد سمعت أن برازها يجمع ويستخدم في دبغ الجلود^(٢٢). وتشكل الكلاب جماعات، تحفظ كل جماعة منها بمنطقتها الخاصة، وتنمنع كلاب المناطق الأخرى من دخول حدود هذه المنطقة، وهي لا تعودى إذا ما شاهدت إنساناً، لكنها تعودى إذا ما شاهدت كلباً غريباً يدخل المنطقة، ولا تتوقف عن العواء حتى يهرب هذا الكلب الدخول ويولى الأدبار.

(٢٢) هذه مبالغة من الكاتب الذى عادة ما يكون حاد المزاج إذا وجد نفسه فى ثقافة مختلفة، انظر المقدمة. (المترجم)

في مجتمع الحيوان توجد نفس المتابع التي توجد في مجتمع الإنسان، في القسطنطينية تكشف ظروف الكلاب عن ظروف المجتمع الإنساني في بداية القرن العشرين، حين يشعر البلد الواحد بالضيق، وبأن أرضه لا تسعه، ولذا يريد أن يتمدد، ويريد أن يتتوسّع على حساب بلد آخر. حين كنت أمضى من "جلطا" إلى "بيرا" شاهدت كلبة ولدت للتو أكثر من جرو، ربما خمسة أو ستة، شعرت بالتعاطف تجاه صغارها، فكيف سيعيشون في المستقبل؟ الأتراك يعتقدون أن الكلب نجس، لكنهم لا يهتمون بالأمر، وربما كانت هذه طريقة تركية في التعامل مع الأمور.

جسر جلطا

عبرت جسر جلطا طوله ٢٠٠ كيلومتر^(٢٣)، وهو مصنوع من الخشب، ومركز الجسر يمكن أن يفتح ويغلق عند مرور السفن، وبجانب هذا الجسر يوجد جسر آخر، ومن يمر على أي من الجسورين عليه أن يدفع رسم مرور قدره سينان^(٢٤) ويُدر هذان الجسراًن دخلاً يقدر بمائة وخمسين ألف ين سنوياً. لا بد من تغييرهما إلى جسور فولاذية، أتعجب لماذا يستخدمون هذه الجسور الخشبية القديمة حتى اليوم، كنت كلما أمضى على الجسر أسمع وقع خطواتي وخطوات الآخرين أيضاً

سانت صوفيا (أيا صوفيا)

عبرت جسر جلطا، ومضيت في شوارع مدينة إسطنبول، ووصلت إلى كنيسة سانت صوفيا، كنيسة كبيرة جداً، سانت صوفيا تعنى أن هذه كنيسة للنصارى، وقد بناها الإمبراطور جستينيان، وأنفق على بنائها عشرة ملايين ين، وخصص لها عشرة آلاف نجار يشرف عليهم مائة خبير، ومنذ خمسمئة سنة استولى

(٢٣) لم تجد معنى كين، إلا أن طول الكوبرى - الذى تم بناؤه سنة ١٨٧٥م، وظل يستخدم حتى ١٩١٢م، وبننته شركة فرنسية بتكلفة ١٠٥ ألف ليرة ذهبية - كان نحو ٤٨٠ متراً طولاً و ١٤ متراً عرضاً، وبهذا يكون الكين القياس الياباني القديم يساوى مترين وأربعين سنتيمتراً. (المترجم)

(٢٤) السين عملة يابانية قديمة لا تستخدم الآن، وهي أقل من الين، وربما كانت متساوية لجزء من "المليم" الذي اختفى منذ سنوات. (المترجم)

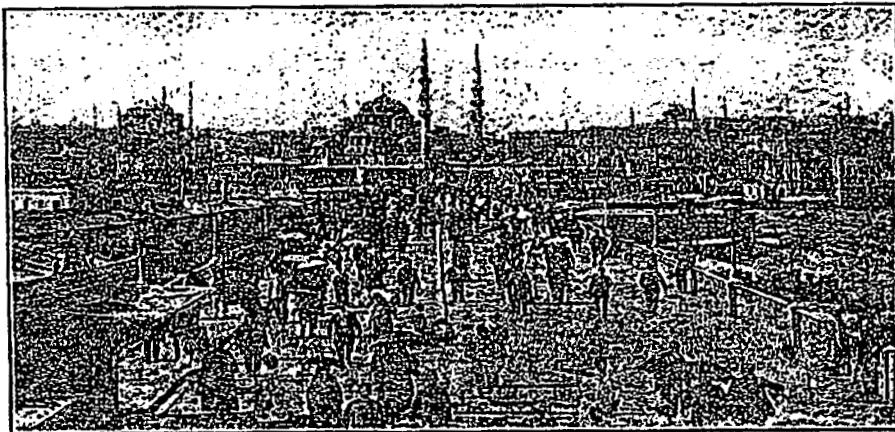
ال المسلمين علىها، وكانت الكنيسة آنذاك تابعة للمسيحيين اليونانيين، والآن تحولت إلى أيدي المسلمين. خلعت حذاء واستعرت نعلاً، ودخلت من الباب، يا له من مبني ضخم! القبة قطرها ٤٥ متراً^(٢٥) والارتفاع ٥٤ متراً^(٢٦) وحولها أربعون نافذة، والأعمدة مصنوعة من الرخام المرمرى الجميل. يقول الناس إن الإمبراطور استجلب هذه المواد من اليونان وبعض دول آسيا، وكان هناك صليب كبير جداً عند المدخل، وبالطبع تمت إزالته، وقاموا بطلاء الصور باللون الأبيض، فأصحاب المبنى الجدد قاموا بعمليات تجديد في المبنى، فصارت الأرضية كلها مغطاة بالسجاجيد، وفي بعض الأماكن علقو قطعاً من السجاد مكتوباً عليها آيات من القرآن الكريم، وأمام المدخل حجر ضخم من الرخام وهو مخصص للوضوء، شاهدت أحد العمال خلع حذاءه وغسل قدميه ويديه ثم ذهب إلى حيث السجاد، واستدار إلى ناحية مكة وبدأ الصلاة^(٢٧).

شاهدت في الركن عجوزاً له لحية بيضاء تدلّت حتى صدره، يجلس ومعه ثلاثة من تلاميذه يرثّلون القرآن الكريم، صعدت إلى الطابق الثاني... آه كيف أمكنهم وضع هذه الأحجار المرمرية وتثبيتها هنا؟! سمعت أنه حدث زلزال هنا ذات مرة واهتز المبنى، وتأثرت أجزاء كثيرة من المبنى فقاموا بإصلاحها، لكن لو حدث هنا زلزال من النوع الذي يحدث في اليابان لتحطم المبنى كلّه.

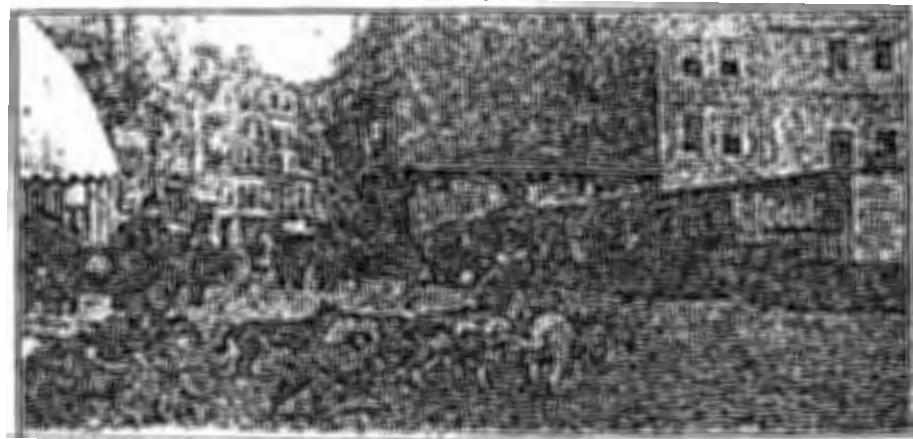
(٢٥) في الأصل ١٥ جو في مصر، والجو يساوى ٢ أمتار. (المترجم)

(٢٦) في الأصل ١٨ جواً. (المترجم)

(٢٧) لم يكن المؤلف دقيقاً هنا، فلا يمكن أن يكمل الوضوء بفصل التقدمين ثم اليدين فقط.



جسر جلطا



الكلاب الضالة فى تركيا

على شواطئ البوسفور

فى اليوم الثانى والعشرين من يونية التقيت السيد "ن" الذى يعمل فى متجر "ناكامورا للبضائع اليابانية" ، هذا المتجر يقع فى الحى اليابانى الوحيد فى تركيا، وقد رافقنى وأرشدنى إلى وسط المدينة.

شاهدت كتيبة عسكرية بالقرب من الجسر، هذه الكتيبة تقوم بحراسة السلطان الذى سيأتى لصلاة الجمعة بالمسجد، فالىوم هو يوم الجمعة. كان منظر

العسكر الأتراك وهم يمشون بخطوات ثابتة حاملين بنادقهم الممتدة يوحى بالقوة والشجاعة، يقولون إن السلطان يخشى من تعرضه للاغتيال من قبل إحدى الجماعات التركية.

مضت السفينة التي ركبتها في المضيق، يقولون الاتجاه شمالي يعني الذهاب إلى البحر الأسود، والاتجاه جنوباً يعني الدخول في بحر مرمرة، تمضي السفينة بين أوروبا وأسيا، شاهدت الشاطئ المملوء بالأشجار الخضراء، ومن فوق الأشجار شاهدت مبني قصر كبير، بدت المياه صافية جداً، كان هناك بعض الصغار يصيدون السمك، شاهدت على الجانب الأوروبي أطلال قلعة قديمة، وأخيراً نزلت من السفينة إلى شاطئ منتجع مملوء بالفنادق والملاهي والاستراحات، التقيت ضابطاً تركياً اسمه "على" لا يحمل رتبة عسكرية عالية، بل كان في بداية مشواره في الترقية، وهو صديق السيد "ن" الذي يعمل في متجر ناكامورا للبضائع اليابانية، كانت لغة الضابط على اليابانية جيدة، وكان يمكنه أن يكتب اليابانية بحروف الكاتاكانا^(٢٨)، كان على في الثلاثين من عمره، وهو إنسان مهذب وخلوق، وهادئ الطبع أيضاً، جلسنا معاً في مقهى بالقرب من الشاطئ، وقد دعانا لتناول القهوة مع الخبز والبرقوق أيضاً. وبعد ذلك ركبنا نحن الثلاثة الحمير، وانطلقتنا فوق ظهورها إلى حديقة تقع في منطقة جبلية، وهناك شاهدت أرفكا تتدلى منها أزهار البنفسج، وشاهدت أيضاً ثمار أشجار الكستناء. كانت لغة الضابط التركي على اليابانية مثل لغتي الإنجليزية!

لا يختلف الناس الذين قابلتهم عن اليابانيين إلا في الطريوش واللغة، وشعرت أنهم إذا تركوا الطريوش ولم ينطقوا بكلمة، فإنهم مثل اليابانيين تماماً، وقد نسيت أحياناً أنت في تركيا. شاهدت في الحديقة عين ماء جارية، وبالقرب منها فرقة موسيقى تركية مكونة من خمسة رجال يعزفون على الكمان والماندولين والطنبورة لحنا حزيناً، فبدأ السيد "ن" والضابط على يدخنان السجائر، أما أنا

(٢٨) تكتب اليابانية بالكاتاكانا والهيراجانا وبأشكال الكانجي التي استعارتها اليابان من اللغة الصينية.
(المترجم)

فلم أدخلن، واستمعنا للموسيقى عدة دقائق ثم ركبنا ظهور الحمير مرة أخرى وعدنا أدراجنا.

شاهدت "فيلا" الضابط على، وهو يقوم هذه الأيام بترميمها، وت تكون من ثلاثة طوابق، وفيها أربع عشرة غرفة، وللفيلا حدقة خلفية، وتبعد مساحتها الكلية حوالي ٤٩٥ متراً مربعاً^(٢٩)، وقد ذكر على أن التكلفة تبلغ حوالي ١٤٠٠ جنيه، وهو مبلغ يساوى ١٥٠٠٠ ين ياباني، هكذا قال.

جاء إلينا رجل في الأربعينيات من عمره، يضع الطريوش على رأسه، بدأ يتكلم اللغة الإنجليزية "المكسرة". عرفت أنه تاجر أرمني، وأنه عاش في بريطانيا مدة طويلة، وهناك درس بنفسه اللغة اليابانية، وأرانا كتاب محادثة باللغة اليابانية والإنجليزية على هيئة قاموس، كتبت فيه اللغة اليابانية بالحروف الإنجليزية.

أخذنا نحن الأربعة الخيول، واتجهنا جنوباً إلى الشاطئ حيث شاهدنا مبارزة "البولو"، كان اللاعبون كلهم أوروبيين، وبعدها افترقنا وودعنا بعضنا بعضاً، أخذت مع السيد "ن" قارباً صغيراً وعدنا من حيث أتينا.

متفرقات

كنت كلما شاهدت الطريوش التركي الأحمر بزره الأسود المتدى من الخلف، أتذكر الصينيين الذين كانوا يطلقون شعورهم السوداء خلف ظهورهم، المرضى في الشرق الأوسط والمرضى في الشرق الأقصى متشابهون في نقاط عديدة، فأعراض المرض هي بشكل أو باخر متشابهة، يتحاشى الأتراك كل الوقت الشائعات، في مركز مراجعة الجوازات، حين قام الموظف المختص بالتدقيق في جواز سفرى وفي أمتعتى، أشار إلى كتاب كنت أحمله معى، وسألنى: ما هذا؟

فأجبته: هذا كتاب إرشادى ، كتاب من أجل السائح.

فسألنى ثانية: هل فيه شيء عن تركيا؟

مثل هذا السؤال وغيره كثير...!

(٢٩) في الأصل ١٥٠ تسوبوا، والتسوبوا ٢٠٣ متراً مربعاً. (المترجم)

وكنت إذا أردت إرسال بطاقة بريدية من مكتب البريد، لا يوافقون على إرسالها إذا حملت البطاقة منظراً أو صورة لأحد الأماكن في تركيا، وبمناسبة مكتب البريد يوجد مكتب بريد حكومي واحد فقط هو المكتب الرئيسي، لكن حول هذا المكتب توجد مكاتب بريد أخرى خاصة، يديرها البريطانيون والفرنسيون والروس والألمان، بدا لي الأمر غريباً وعجيباً! وتركيا بلد مغلق، لهذا يصعب الحصول على فيزا أو تأشيرة دخول إليها. حين كنت في القدس، وذهبت إلى مكتب الشرطة للحصول على الفيزا، شاهدت كثيراً من التجار الذين رفضت طلباتهم للحصول على الفيزا، في ذلك الوقت همس روبرت في أذني: “يأخذون بقشيشاً أكثر من ٢٠ فرنكاً للفيزا الواحدة وفي القدس نفس الأمر.

* *

طريقة التحية في تركيا عند المهدبين جداً هي رفع اليد اليمنى ثم خفضها إلى أسفل ثم رفعها إلى الرأس، وتعد هذه هي الطريقة المهدبة جداً، بينما التحية العادمة هي وضع اليد بمحاذاة الفم ثم رفعها إلى مستوى الرأس، وهذه التحية تعنى أن قلبي وعقلي معك ومن أجلك^(٣٠) وهم يقدمون للضيف في جميع المناسبات القهوة مع الماء، وتقدم القهوة في “فنجان” صغير، وعادة ما تقدم دون سكر، والماء مهم جداً عند تقديم القهوة، وهم لا يقدمون الخمر لأنه محظوظ كما جاء في القرآن.

* *

الرشوة التي تقدم لموظفي الحكومة أمر منتشر وشائع، وبخاصة بين رجال الشرطة الذين لا يخضعون لمراقبة أو إشراف أو مساءلة، وإذا ما قبضوا على لص، فإن المسروقات يتم تقسيمها بينهم، وهم في جميع الأوقات يتطلبون الطعام أو أي شيء مقابل تقديمهم أي خدمة، وجدت أحد الضباط يبيع “النيشان” العسكري الذي حصل عليه، فاشتريته منه!

* *

(٣٠) ربما قصد المؤلف: على رأس: (المترجم)

يستخدمون فى تركيا الحروف العربية فى الكتابة، ويكتبون اللغة التركية من اليمين للشمال بشكل جميل، وتبدو الكلمات المكتوبة مثل لوحة فنية، أما الساعة التركية فتتبع النهار والليل، فالساعة السادسة بالنسبة لى هى بالنسبة لهم الثانية عشرة^(٢١).

* *

هذا البلد يتطور بالإسلام وبالقوة العسكرية، فى المدرسة الابتدائية لا يعلمون القرآن، وهناك مدارس عسكرية كثيرة، وهناك مدرستان للتعليم العالى، وتركيا هى البلد الذى يتجمع فيه الأوروبيون، ولذا يتقن الناس لغتين أو ثلاث لغات، واللغة الفرنسية شائعة هنا.

* *

شاهدت بالقرب من الميناء فرقاطة حربية تركية حمولتها نحو تسعه أطنان، قال السيد "ن" إن هذه الفرقاطة راسية هنا منذ ستة أشهر، يقوم بحارتها فى النهار بغسل ملابسهم ونشرها فى الهواء، وفي الليل يتمتع هؤلاء بما تعرفه الفرقة العسكرية من موسيقى، ويدهب هؤلاء مرة كل سنتين إلى بريطانيا للتدريب، هذا هو عمل البحرية.

* *

فى البيوت التركية يقومون بعمل "مشربيات" من المعدن بدلاً من التوافذ فى الجهة المواجهة للطريق، يقولون: إنهم يريدون الحفاظ على البنات غير المتزوجات من فضول نظرات المارة، فهذا يجعلهن فى أمان بعيداً عن الأنظار، وفي اللغة التركية يستخدمون كلمة "حرمتك" وـ "حرمتى"، ولا ينطقون بالاسم، هذا ما أخبرنى به على، فهم لا يقولون زوجتك أو زوجتى، وقال على أيضاً: إن نظام الزواج بأربع مسموح به طبقاً لما جاء فى القرآن، لكن للشخص الذى له القدرة على ذلك، وربما يوجد هذا فى جزيرة العرب، لكن لا يوجد لدينا من هو متزوج بأكثر من واحدة، لكن بعض الناس لديه خليلة من أجل التسرى، وهؤلاء يتم جلبهن

(٢١) وهو ما كان يعرف قديماً بالتوقيت العربى مقابل التوقيت الإفرينجى. (المترجم)

من منطقة القوقاز حيث توجد نساء جميلات و المتعلمات، ومن هنا يمكن دفع مبلغ خمسة آلاف أو ستة آلاف من أجل امرأة جميلة متعلمة.

لا يوجد في القسطنطينية طبقة متوسطة في المجتمع التركي، فترى الناس صنفين: صنفًا يرتدي الحرير، وصنفًا يرتدي الخيش.

* *

كيف يفكر الأتراك عن اليابانيين؟ وما هي وجهة نظرهم؟ ببساطة يرون أن اليابان كسبت الحرب ضد روسيا بينما خسرت تركيا الحرب ضد روسيا، هذا يعني أن اليابانيين في أقصى الشرق أفضل من الأوروبيين، هذا ما يشكل مشاعرهم تجاه اليابان، لكن يبدو أنهم يشعرون بالحسد والغيرة!

سمعت وأنا هنا أن السلطان التركي دعا السيد ناكامورا وقال له: لماذا لا تصبح مسلماً يابانياً، وتعمل من أجل الدعوة الإسلامية في اليابان؟ ما رأيك في هذه الفكرة؟

إلا أن السيد ناكامورا أجاب: إذا قبلت هذه الفكرة فهذا يعني أن إمبراطوري في اليابان لا يحتل مرتبة عالية، ولن يكون بالنسبة لي هو الرمز الأعلى.. هذا غير ممكن، لهذا أنا آسف جداً

* *

المرضى في الشرق الأقصى يحاولون أن يستيقظوا، وأيضاً المرضى في الشرق الأوسط يناضلون، لقد أوجدت الحرب التي دارت بين اليابان وروسيا صدمة كهربائية للبلاد الآسيوية لكنها لم تؤثر على تركيا، والشعب التركي في أصله شعب صبور، كما أنه شعب لا يصبه اليأس، وشخصية الأتراك هذه تجعل "المرحوم" جراندستون يغضب^(٢٢)، فقد اعتاد على أن يقول: لا بد أن نخلص أوروبا من تركيا، إلا أنه من العدل القول بأن أحفاد الصليبيين لا يمكنهم في كل

(٢٢) ولIAM جراندستون مفكر وسياسي بريطاني، تقلد رئاسة الوزراء البريطانية أكثر من مرة، وشهد مقتل ٢٠٠ ثائر مصري في الإسكندرية عام ١٨٨٢م وقت ثورة عرابي، وشجع على الاحتلال مصر عسكرياً، معتبراً إياها في حالة عصيان عسكري ولا يوجد بها قانون. وقد كتب عام ١٨٣٨ كتاباً بعنوان The State in Its Relations with the Church موضحاً أن هدف الدولة دعم الدفاع عن مصالح الكنيسة الإنجيلية. (المترجم)

حين أن يستعبدوا أو يهزموا أصحاب "الهلال"^(٣٣) . وأنا أظن أنه إذا كان هناك ما يمنع نهضة تركيا فهو فهمهم للإسلام،أتمنى من أجل الشعب التركي أن تستخدم تركيا القوة العسكرية والشجاعة والبسالة مثلاً فعلت اليابان هناك حيث تشرق الشمس في أقصى الشرق، وهنا في الغرب بلد يطلع فيه الهلال، ونحن هذه الأيام نفكر معاً، الشمس والهلال، بلد الشمس المشرقة تصلّى وتدعى من أجل أهل البلد الذي يطلع فيه الهلال، وأتمنى أن يطلع الهلال ويستطيع كالمراة!

أتمنى ذلك من أعماق قلبي!

(٣٣) يرمي هنا إلى تركيا أو المسلمين عمّة . (المترجم)

المؤلف في سطور:

كينجيزرو توكتومى:

أديب ذاعت شهرته في اليابان، وترجمت بعض أعماله إلى أكثر من لغة، ولد في عام ١٨٦٨ م في إحدى قرى جنوب غرب جزيرة كيوشو لأسرة تنتهي إلى طبقة الساموراي، وانتقل إلى كيوتو للدراسة في جامعة دوشيشا، وكان سعيدا جدا بالدراسة فيها، متمتعا بعالم جديد من الكتب، ويجو خليط من الحياة اليابانية والغربية. بعد أن ذاعت شهرته أديبا وروائيا، اتخذ من اسم لوفا اسماً أدبيا، ولوقا أو روكا - كما يكتب باليابانية - يعني الزهرة التي تنبت بين الصخور، لكن لا وجود لها في الواقع، وهي من بنات أفكار كينجيزرو توكتومى، وصف بها نفسه !! تعد رواية طائر الوقواق (هوتوجيسو) رواية الطبيعة والحياة من أشهر رواياته، وقد نشرت أعماله الكاملة في عشرين مجلدا.

في أواخر سنة ١٩٢٦ م تدهورت صحة كينجيزرو كثيرا ثم غرق في نوم عميق لم يصح منه.

المترجمان في سطور:

سمير عبد الحميد إبراهيم:

ولد بمحافظة الشرقية بمصر وعمل بجامعة القاهرة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، قبل أن يعمل حالياً أستاداً للغات الشرقية وأدابها بجامعة دوشيشا في اليابان، من مؤلفاته "الإسلام والأديان في اليابان"، وـ"الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردية"، وـ"جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان"، وـ"فهم الإسلام في اليابان بين الماضي والحاضر". ترجم كتاباً كثيرة عن الأردية والفارسية واليابانية، نُشر عدد منها (تسعة كتب) ضمن المشروع القومي للترجمة في المرحلة الأولى، ومن ترجماته عن اليابانية (بمشاركة زوجته سارة تاكاهاشي): خيط العنكبots وقصص أخرى من الأدب الياباني" وـ"ياباني في مكة"، وـ"تناكا إبييه رائد الدراسات الإسلامية ورحلاته إلى الجزيرة العربية".

سارة تاكاهاشي:

ولدت في محافظة طوهوك في شمال اليابان، بعد أن أنهت دراستها في اليابان درست في جامعة كامبردج، والمعهد العربي الإسلامي في طوكيو، وفي جامعة الأزهر. ترجمت عدداً من الكتب منها: الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية لإيجيرو ناكانو، كما ترجمت (بمشاركة زوجها سمير عبد الحميد): "خيط العنكبots وقصصاً أخرى من الأدب الياباني" ، ونشرت عدداً من المقالات

والقصص المترجمة في عدد من المجالات الأدبية، "ياباني في مكة"، وتناولها إبيبيه ورحلاته إلى الجزيرة العربية" و كما نشرت عددا من البحوث باللغة اليابانية منها: "الرحلات اليابانية للبلاد العربية" و"الرحلة إلى الحج في الأدب الياباني" و"عشر سنوات في الرياض".

التصحيح اللغوى: حامد الشيمى
الإشراف الفنى: محسن مصطفى

هذه الترجمة التي نقدم الجزء الأول منها (الرحلة إلى فلسطين ومصر 1906م) لمؤلفها تو كوتومي كينجورو نحط مختلف تماماً عن الكثير من الرحلات، فهي غووج من الرحلات اليابانية إلى المناطق المقدسة لدى المسيحيين، بقلم أديب ياباني مسيحي يدعى تو كوتومي كينجورو "لوفا" قام برحلته كما ذكر بهدف الحج إلى "الأراضي المقدسة في فلسطين" وبالتالي تحديد في القدس، ويستخدم كلمة الحج باللغة اليابانية التي استخدمها مواطنه من المسلمين اليابانيين حين وصفوا رحلاتهم إلى الحج وأداء مشاعره في مكة المكرمة، وتعد هذه الترجمة أول ترجمة إلى اللغة العربية لأى من كتاباته، وقد نشرت هذه الرحلة في المجلد الثامن ضمن مجموعة مؤلفاته التي صدرت في عشرين مجلداً.